كلام من القلب

لاوما

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع
٢٠١٩/٢٠٢٠٤

بطاقة فهرسة

لاوما
كلام من القلب : مجموعة قصصية/ لاوما، ترجمة وتقديم: ميرا أحمد، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩
١٤٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم
تدمك:٨-١٨٧-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الصينية
٢- القصصة الصينية القصيرة
أ- أحمد، ميرا (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٩٥,١٣

دار غراب للنشر والتوزيع
٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠
مدينة نصر ـ القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف
عمرو الحو

التدقيق اللغوي
خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي
أحمد البسيوني

كلام من القلب

لاوما

تقديم وترجمة

ميرا أحمد

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
كم أهوى زيارة المرضى!	١٩
حياة سعيدة	٢٢
أطلقوا سراحه!	٢٧
حذاء جلدي أحمر	٣٠
الصبار	٣٤
تسمُّم غذائي	٤٠
كله سلف ودين!	٤٤
المثقف	٤٨
وثيقة التأمين	٥٢
حقيبة الأستاذ موه	٥٦
رسالة انتحار	٦١
اشترِ جارًا	٦٣
فتاة لا تبرح المنزل	٦٧

العطش ٧٠
الكوكاكولا ٧٣
رجل نصف ميت ونصف حي ٧٧
زي موحد ٨٣
ستتغير الأحوال! ٨٦
كلام من القلب ٨٩
ثلاث ضحكات ٩٣
النسيان ٩٧
انتظر لحظة! ١٠١
صحن من الشعيرية ١٠٤
قدرات خارقة ١١٠
ما وراء الكلام ١١٥
ربما! ١١٩
رسالة من البلدة ١٢٣
دقيقة واحدة تُسبِّب الندم ١٢٩
القرعة ١٣٤
فتاة المصعد ١٤٠

كلمة المترجم

إلى قرائي الأعزاء.. الأعزاء جدًّا..

أقدِّم إليكم بمنتهى الحب وبمنتهى الإخلاص ثلاثين ضحكةً؛ ضحكة تلو الضحكة؛ كي تعلو وجوهكم الخالية من لون الفرح وتغسل أرواحكم الذائبة من فرط الجرح... فأنا أعرف عز المعرفة طعم الضحكة التي تخرج من قلب حزن قد استوطن حنايا قلب صغير، حتى صار وطنًا لا يبرحه! وكم أتمنى أن أسمع ضحكاتكم تجلجل في الأنحاء، ويعلو صداها حتى يصل إلى هناك، حيث المدى البعيد البعيد، فزمن الضحكة قد ولَّى، وطوته ذاكرة النسيان، وعلَّه يعود من جديد ليحييَ ما مات من الإنسان.

مقدمة

يعود تاريخ الأدب الساخر الصيني إلى وقتٍ طويل، وكان أول ظهور للأدب الساخر في "كتاب الأغاني" في عهد أسرة تشين الأولى، ثم ظهر في بعض الروايات في عهد أسرة تانغ ومينغ، لكنها كانت كتابات مُبالَغ فيها، ولا تمتُّ بصِلةٍ إلى الحياة الواقعية والمشاعر الإنسانية الحقيقية، وحملت الكثير من التباس المعاني.

وفي عهد أسرة تشينغ صارت الكتابات الساخرة موضع إدانة، خاصة التي تتعلق بالأمور السياسية، مثل رواية "السجلات الرسمية للموظفين" للكاتب "ليو باو جيا"، و"أزهار في بحر الخطيئة" للكاتب "تسنغ بو"، وغيرها من الروايات الأخرى.

وفي مطلع القرن العشرين بات الأدب الساخر قالبًا فنيًّا مهمًّا، وكان رُوَّاد هذا القالب الأدبي في هذه الفترة الكاتب "لوشون"، و"تشانغ تيان يي"، و"خوانغ تشون مينغ". وتجسَّدت بعض السمات التي ميَّزت كل كاتب عن

الآخر، فعُرفت سخرية لوشون بـ"السخرية الباردة"، وسخرية تشانغ تيان يي بـ"السخرية الساخنة"، بينما اتخذ خوانغ تشون مينغ قالبًا قائمًا بذاته وهو "الكوميديا الهزلية".

وقد اتسمت أعمال الكاتب الكبير لوشون وهو رائد الواقعية النقدية بالكوميديا السوداء التي تلقي بظلالها على الجوانب المعتمة في الحياة، وتوضح مساوئ الشخصية الصينية التقليدية وعيوبها، فثار في أعماله على العادات والتقاليد البالية، التي قد تودي بحياة الإنسان، حاول اقتلاع الجهل المتأصِّل في نفوس البشر، وإيقاظهم من غفلة الحياة المنغمسين بها، فكان أشبه بناقوس خطر يدق، ليوقظ النائمين من سباتهم العميق، وينتبهوا إلى واقعهم المرير. ومن أهم أعماله التي جسَّدت هذا النمط السردي "القصة الحقيقية لأكيو"، و"الدواء"، و"قطط وكلاب"، و"مذكرات مجنون"، و"الإخوة" وغيرها من الأعمال الأدبية الأخرى.

وقبل أن أتطرق إلى الحديث عن هذه المجموعة وعن كاتبها، كان لا بد في البداية عرض مفهوم الأدب الساخر – على الأقل – من وجهة نظر خاصة. الكتابة الساخرة لا تختلف كثيرًا عن الكتابة السردية المتعارف عليها، فهي وسيلة من الكاتب ليعكس الواقع دون أن ينتقص منه شيئًا، يعكسه بما هو عليه من جمال وقبح.. يعكسه بألوانه البهيجة وألوانه القاتمة.. يعكسه بأفراحه وأحزانه. يقدم نظرة شاملة وعميقة للحياة، وليس رنات الضحكات والقهقهات هي غايته، فالأدب الساخر ليس مجرد مجموعة من النكات أو كلمات المزاح يطلقها قلم الكاتب لمجرد التنكيت، لا، الغاية أسمى من هذا

بكثير، بل هو يحصِّن أرواحنا قبل أن تتداعى وتنهار من فرط المشاعر السلبية التي تعترينا.. من الشعور بالظلم والذل.. من الانكسار وخيبة المسعى.. من الهوان والإهانة.. من الخوف والخواء.

لا يكتب الكاتب الساخر بقلم مشحوذ، بل يكتب بسلاح يطلق مفارقات مدوية، وتفصيلات نارية، ومشاهد حياتية تُفجِّر الضحكات على الوجوه العابسة، وفي الوقت نفسه تبكي القلوب حبيسة الصدور. الأدب الساخر هو خير سلاح لتحقيق التوازن النفسي وسط مجتمع مليء بشتى الاضطرابات النفسية.

وربما يكون الكاتب الساخر يحاول هو أيضًا أن يُحصِّن روحه من انكسارات أو خسارات لحقت به.. فالكاتب هو في النهاية إنسان من لحم ودم. يمر بتجارب إنسانية وحياتية قد تعصف به وتزلزل كيانه الرصين، فكيف يقدر على مواصلة الحياة إلا بالسخرية من واقعه وما فُرض عليه من عادات وتقاليد تُقيِّد روحه وتحبسه في سجن يقيم به إقامة جبرية، فيبحث بعينيه الثاقبتين عن أشياء وتفاصيل صغيرة تقلب الموازين، وتنبثق من خلالها ضحكات تحمل بين صوتها الهادر كمًّا من الألم، وكمًّا من الأنين!

وفي بعض الأحيان يترك الكاتب العنان لكلماته الساخرة والعبارات الهزلية فيقع في المحظور، ويتحول من كاتب إلى مهرج.. فشعرة بسيطة تفصل بينهما، وكلما تمتع الكاتب بأفكار هادفة وثقافات متنوعة، ارتفعت قيمة كتاباته الساخرة، وارتقى بها إلى منزلة سامية، تترك بصمة جلية في نفوس القراء.

الكاتب الساخر هو كاتب من طراز خاص؛ فهو لا يمتاز بامتلاكه الحسَّ الفكاهي فحسب، بل ينبغي أن يكون شديد الملاحظة لتفاصيل الأشياء من حوله، وعلى قدر كبير من الثقافة، ويمتلك حسًّا نقديًّا عاليًا، وقدرة على الثورة على القوالب الجامدة والعادات والتقاليد البالية، ورغبة دائمة في تغيير الواقع من حوله.

الكاتب الساخر لا يقبل بالمسلَّمات، ولا يرى ظاهر الأشياء، بل يتعمق إلى باطنها، فهو يمتلك عينين تختلفان عن الإنسان العادي، فهو يرى الواقع من حوله بعين مغايرة، ويبحث دائمًا عن مفارقات الأحداث حتى تتولد السخرية، فربما يحاول أن يجعلنا نضحك على حالنا قبل أن يضحك عليه الآخرون.

وقد وضعتُ بين يدي القراء هذه المجموعة القصصية الساخرة للكاتب الصيني المتميز "لاوما" "ما جون جيه" هو الاسم الحقيقي للكاتب لاوما. قد التحق بقسم الفلسفة في جامعة الشعب الصينية. يعمل الآن أستاذًا في جامعة الشعب الصينية، وهو عضو في لجنة القصة في اتحاد الكتاب الصينيين. بدأ الإبداع الأدبي في تسعينيات القرن العشرين، وقد اشتُهر بكتابة القصص القصيرة، ونُشرت له مئات القصص في المجلات الأدبية. وتم اختيار أكثر من مائة قصة قصيرة من أعماله وأُدرجت ضمن "قصص القرن الحادي والعشرين"، "وأفضل الروايات الصينية"، و"أفضل القصص القصيرة الصينية"، و"مائة قصة في مائة عام من القصص الخيالية القصيرة"، وغيرها من القوائم الأخرى.

وله العديد من المجموعات القصصية مثل "ابتسامة مصطنعة"، "انتظر من فضلك"، و"حفل من أجل فرد واحد"، و"سعادة مائة بالمائة"، و"ما وراء الكلام" وغيرها من المجموعات القصصية، وكتب العديد من المقالات النثرية مثل مجموعة بعنوان "منطق الضحك"، و"حينما تقترب تراه جبلًا، وحينما تبتعد تراها شجرة"، وكتب أيضًا بعض النصوص المسرحية.

وقد تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والكورية واليابانية والمنغولية والفيتنامية والتركية. وتُعدُ هذه الترجمة هي الترجمة العربية الأولى لأعماله.

حصل على العديد من الجوائز الأدبية مثل جائزة "بو سونغ لينغ" (القصة القصيرة)، وهي جائزة تُقدَّم منذ عام ٢٠٠٥ ويعدُّ "بو سونغ لينغ" من أهم كُتَّاب أسرة تشينغ، وقد اشتُهر بغرابة الأسلوب السردي. وحصل على جائزة "جريدة أكتوبر" في دورتها العاشرة، فرع القصة القصيرة، وحصل في عام ٢٠١٤ على جائزة الأدب المنغولي الكبرى، وتعدُّ هذه هي المرة الأولى التي يُمنح فيها كاتب صيني هذه الجائزةَ، وبهذا يعدُّ الكاتب الآسيوي الثالث الذي يحصد هذه الجائزة الرفيعة بعد حصول الكاتب الياباني "تانيكاوا" والكاتب الكوري "قاو يين" عليها.

يرى الناقد الصيني الكبير "لاي دا" أن لاوما يتمتع بأسلوب ساخر فريد في استيعاب جوانب الحياة والملاحظة الدقيقة لتفاصيلها. مما يعطي القارئ تجربة أدبية غير مألوفة.

قال الكاتب الكبير مويان الحاصل على جائزة نوبل في الأدب في تقييمه للكاتب لاوما: "الطول والتماسك ودرجة الصعوبة هي معايير الكتابة السردية في الرواية، وتمثل هيبة هذا الجنس الأدبي العظيم. ويرى معظم الكُتَّاب، كلما طالت الرواية، ارتفعت قيمتها، لكن الكاتب والأستاذ الجامعي لاوما دحض هذا الرأي بأسوبه السردي البسيط".

وقد ذكر الكاتب الصيني الكبير الحاصل على جائزة كافكا في الأدب حينما تحدث عن الكاتب لاوما: "الحس الفكاهي يجعل من أعمال لاوما أعمالًا فريدة، لأن الحس الفكاهي في الروايات الصينية شيء نادر. في نظر بعض الأجانب تعدُّ الصين بلدًا يفتقر إلى روح الدعابة، والشعب الصيني يفتقد روح الدعابة في الحياة اليومية، بينما في أعمال لاوما تجد الفكاهة حتى بين سطور الكلمات".

ووصف أسلوبه الساخر قائلًا: "استفاد لاوما من قصر قصصه، وراح يمزج بين الكتابة النثرية والسرد والوصف وتقنيات الكلام، وأُتيحت له حرية الحركة والتنقل عبر الكلمات، فتجاوزت قصصه وأَثْرَت القوالب النمطية للرواية المعاصرة، وخلق شكلًا إبداعيًّا فريدًا في الإبداع القصصي".

وذكر المترجم الكوري "جينتاي تشنغ" في مقدمة نسخته الكورية المترجمة عن أعمال الكاتب لاوما: "إن غالبية الأعمال التي يقدمها الكتاب الصينيون تتخذ من قالب الرواية أساسًا لها، حتى الأعمال الإنسانية التي من المفترض أن تُثير على مشاعر القراء، يبدو السرد بها مزعجًا إلى حدٍّ ما، ويشعر القارئ

بالملل نحوها، ولا يحظى الكاتب بالتقدير الذي يستحقه. بينما جاء الكاتب لاوما وأحيا الأدب القصصي الساخر المتمثل في القصة القصيرة بعد أن اختفى تقريبًا من الأعمال الأدبية الصينية".

تتناول هذه المجموعة القصصية مجموعة من القصص والحكايات الساخرة، يلقي الكاتب الضوء على بعض المواقف الإنسانية بطريقةٍ ساخرة وطريفة. في هذه المجموعة يتمرد الكاتب على الواقع، ويكشف الجوانب المظلمة والمضيئة في الحياة التي يعيشها الإنسان، في شكل سردي بسيط وأنيق، وفي النهاية لا يسع القارئ إلا أن يضحك، وربما تكون هذه الضحكات من فرط الألم والحزن.

تحمل القصص رسائل وقضايا تهمُّ الكاتب، حاول التعبير عنها بشكلٍ غير اعتيادي من خلال السخرية الواعية التي تبتعد كل البعد عن الهزلً والمجون، بل تلك السخرية التي تحمل بُعدًا فلسفيًّا عميقًا ومعاني بعيدة من خلال الغوص في أعماق الذات البشرية، وسبر أغوارها الدفينة، وكشف المساوئ والأخطاء والعيوب وأوجه القصور في شكل أدبي مكثف.

برع الكاتب في التعبير عن أفكاره بلغةٍ أنيقة ورشيقة وبسيطة في تبتعد عن الابتذال آن، فعلى الرغم من روح الكوميديا التي حملت بين طياتها شيئًا من الكوميديا السوداء، فقد حافظ على سلامة الأسلوب اللغوي الذي ابتعد عن العامية، وتجلت براعة قلمه الأدبي الفريد في التشبيهات والصور البلاغية التي تضمنت القصص.

تناولت القصص حياة ومواقف لأساتذة الجامعة وصغار الموظفين وسكان الريف، والحياة الريفية التي غلب عليها شيء من السذاجة والمعتقدات البالية. جاءت القصص مشوقة ومثيرة، حتى أن القارئ لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه إلا مع نهاية السطر الأخير في القصة، وحينئذ تلوح البسمة على شفتيه.

لماذا تحمستُ إلى ترجمة هذا العمل؟

ما زلتُ أذكر اليوم الذي كنت فيه في العاصمة بكين للمشاركة في دورة تدريبية للترجمة الأدبية، ويومها كنت أحضر ندوة للكاتب لاوما على هامش معرض بكين الدولي للكتاب، وأخذت أطالع كتابه، وقبل الانتهاء من القصة الأولى، كنت قد انتويت ترجمة هذا العمل. وبعد انتهاء الندوة جمعني بالكاتب حديث طويل، ورحَّب بمشروع ترجمة أعماله. ما زلت أتذكر هذا الشعور الذي خالطني منذ الوهلة الأولى وأنا أطالع الكتاب، فأحسستُ أنني لم أصادف مثل هذا الأسوب الأدبي من قبل، رغم أنني قرأت الكثير من الأعمال الإبداعية الصينية وترجمتُ منها الكثير، لكن ثمة شيئًا مختلفًا في هذه القصص.. نكهة مختلفة في أسلوب الكاتب لم أعهدها من قبل.. نعم، لقد ترجمت من قبل معظم أعمال الكاتب الكبير لوشون، رائد الواقعية النقدية، وقد حملت أعماله ظلال الكوميديا السوداء لواقع المجتمع الصيني آنذاك.. لكن هذه القصص تشعرك أنها قصص كل العصور، ترى فيها نفسك وواقعك وحياتك.. ترى عبر أبطالها الوطن والصديق وكل فرد من أفراد عائلتك.. ترى الماضي والحاضر وربما تبصر المستقبل. فالكاتب هنا ليس

مجرد كاتب، بل تشعر أنه فيلسوف يرى الأمور بنظرة فلسفية عميقة، أو ربما تشعر أنه طبيب يداوي الجراح.. جراح القلوب وعلّات النفوس.. فهو على يقين أنه لا محالة أن الضحكات سترنّ في الأنحاء، والتي قد تُواري خلفها بحورًا من الدموع.. ضحكات انتزعها من تفاصيل الحياة ومن مفارقات الأحداث.

ويبدو أن الكاتب يعلم أننا جميعًا في حاجة إلى الضحك حتى نقدر على العيش على أرض الواقع، وربما كان هو من في حاجة إلى هذا الضحك؛ لأنه قد ضجر ذلك البكاء الأخرس الذي يميت أرواحنا بالموت البطيء.. ربما!

هذه المجموعة القصصية تحمل سمة مهمة، ألا أنها ستخلِّد كاتبها، وكاتبها سيخلِّدها في تاريخ الإنسانية وتاريخ الأدب الصيني.

كم أهوى زيارة المرضى!

يَمتلِكُ الأستاذ "تشو" هوايةً غريبة.. فكم يهوى زيارة المرضى!

وفي يوم عيدِ ميلادِه، أعددتُ أنا وبعض الطلبة طاولةً للاحتفال بيوم ميلاده. يومها فاضت سعادتُه، واحتسى كثيرًا من الخمر، وباح بكلامٍ غير مُباحٍ، وفضَّ أسرار القلب لنا.

أخبرنا الأستاذ تشو أنه يهوى زيارة المرضى من زملائه في القسم ومعارِفه وزملاء الدراسة؛ ليُلقي عليهم التحية. حرَّك حديثُه مشاعرنا الخضراء، وانتابنا إعجابٌ شديد باهتمام قلبه العطوف بالآخرين، وتقديره لمعاني الصداقة. ثم فتح قلبَه بقدرٍ أكبر، وقال: إنني لا أذهب لزيارة المرضى بسبب حبٍّ كبير في جنبات قلبيَ الرحيم، لا، فغايتي غير! ثم احتسى المزيد من النبيذ الأبيض، وبلغت حماسته حَدَّ السماء.

وقال: إن المنافسة في الحياة دائمًا ما تكون بيني وبين شخصٍ آخر. لكن لا تشغلني تلك المنافسات بين دولةٍ وشقيقتها، وبين منطقة وجارتها، وبين شركةٍ

وغريمتها، أو حتى بين كُليةٍ ومنافستها، لأنها لا تحمل أية منافسةٍ شخصية. فعادة تكون المنافسات بين أشخاص تعرفهم مثل زملاء العمل والدراسة والأقارب، حتى الأشقاء يتنافسونَ. لكن هؤلاء الأغراب والأشخاص الذين لا تعرفهم لا يمكن أن تدخل معهم في دائرة المنافسة.

وتلا علينا بنفسٍ راضيةٍ كيف صار حتى الآن شخصًا ناجحًا. من أين جاءه النجاح؟ أخبرَنا أن السِّر يكمن وراء الصِّحة الجيدة.

تلا على مسامِعنا في كل مرة أنه يعرف أن أحد زملاء العمل أو الدراسة الأعزاء طريح الفراش في المشفى، يُخالطه شعور غريب بالنشوة يتسلَّل ويسكن حنايا القلب، وتجتاحُه رغبةٌ قوية في الذهاب لزيارته.

في هذه اللحظة الخاصة يشعر برضا.. رضا كبير.. كان مشهد المريض وهو مستلقٍ على فراش المرض، أو هو يصرخ من فَرْط الألم، أو هو يعضُّ على أسنانه مِن الوجع، أو تتشنَّج عضلاته، ويرتجف جسدُه من شِدة المعاناة، يجعل قلبه يرقص طربًا.

في بعض الأوقات حينما كان يرى جسد زميلٍ العمل أو الدراسة مرشوقًا بشتى الأنابيب والخراطيم، كان يشعر بالامتنانً أنه ليس مكانه. فكم سهلٌ تحمُّل عذابات المرض حينما تنخر في جسد آخر غير جسدك!

وراح يسرد لنا بعض الأمثلة كي يزيد من تفسير ما يقصده:

كان هناك أحد الأساتذة، يُقيِّم غيره من زملائه، فكتبَ تقريرًا أن المواد الدراسية التي استخدمها في الشروح مسروقة ومنسوخة، وكانت النتيجة

تعطَّلت ترقيتي ثلاث سنوات، وفي النهاية نالَ غرضه، وحصل على مُنيته، وترقَّي إلى درجة أستاذٍ قبلي بعامين. ورُحت أراقب المشهد فترةً من الوقت.. ماذا حدث؟ دَخَلَ المشفى إثر إصابته بسرطان في الكبد، وكانت حالته متأخرة! تحدَّيتُ المطر، ورُحت أزوره في المشفى، وقد اشتدَّت آلامُه حتى أنه لم يعد يحتملها، أما أنا فقد أطلقتُ لكلماتي عِنانها، وسعادة قد طغت وملأت جوانحي.

وشخص آخر كان زميل الدراسة والعمل، بعد أن تخرَّجنا في الجامعة راح يتنافس معي في كل مكان، حتى ظَفرَ بمقعد نائب الرئيس الذي كان من حقي أنا. ورُحت أراقب المشهد... وماذا كانت النهاية؟ مرضًا في القلب أنفقَ على علاجه عشرات الآلاف. والآن كيف حاله؟ لم يذهب منصب نائب المدير فقط، بل استدان من جميع بني البشر.. في تلك المرة التي ذهبتُ إلى زياته، رأيتُه نحيل الجسد ككلبٍ أجرب، أهٍ، كم هو مسكين!

وأيضًا لاو تشيان الذي عملتُ أنا وهو أستاذين في الجامعة، وكان قد حصل على بيتًا قبلي بعام ونصف، وكان وقتها يشعر بزهو كبير، ورغبَ أن يريه العالم كله إياه. وقبل عشر سنواتٍ أُصيب بجلطة في المخ، وشَرَعَ يسير على مهلٍ، وفي لحظةٍ كان يقفد اتزانه ويهوى على الأرض. والآن لم يعد هناك مجال للمقارنة بيننا؛ فأنا أستطيع تناول كيلوجرام من اللحم السابح في صلصة الصويا، وأشربُ نصف زجاجة من النبيذ الأبيض. وماذا عنه؟ هو أشبَهُ بميتٍ.. يحيا كأنه ميتٌ. حينما ذهبتُ إلى زيارته في المشفى في ذلك اليوم

حاول بشق الأنفس أن يجلس، لكن ظَهرَه كان ينحسر إلى الوراء، فمارستُ أمامه مائة ضغطةٍ على الأرض، حتى تصاعَدَ بُخار الغضب من أنفه.

وبعد أن استمعنا - بمنتهى الدقة - إلى حديث الأستاذ تشو، أُعجبنا بسعادته وشعوره بالرضا الذي يملأ كيانه، وفرحته بصحته العفيَّة، وحَفِظنا الدرس، وحفرناه على جدران ذاكرتنا ولم ننسَه.

ومنذ فترة قصيرةٍ خضع الأستاذ تشو إلى عمليةٍ جراحية بسبب مشكلة في البروستاتا، وهو الآن ما زال في المشفى يتلقى العلاج. وكان يجب علينا زيارته والالتفاف حول فراشه، ومُرافقته طوال اليوم. لكن بسبب رأيه في زيارة المرضى، لم يكن أحد بيننا يجرؤ على الإقدام على زيارته، حتى لا يسيء فَهْمَنا، فحتى اليوم لم نزره، واكتفينا فقط بأن نصلي من أجله من أعماق قلوبنا، ونأمل أن يتعافى في القريب العاجل حتى يستطيع أن يزور هؤلاء المرضى من زملائه وأصدقائه كما يهوى.

حياة سعيدة

وبعد أن استمعتُ أنا وزوجتي إلى محاضرة الطبيب النفسي، أدركتُ أنا وزوجتي أن ثمة مشكلة في حياتنا.

نحيا حياةً غير سعيدة، إذا لم نستمع إلى حديث الطبيب النفسي وتحليلاته، لبقينا نحيا في ظلام دامس بأننا ننعم بسعادة أبدية. لكن إحساس السعادة الذي كُنَّا نتوهَّمه طَوال هذه السنوات، ما هو إلا وهم زائف، نضحك به على أنفسنا، فحياتُنا تعاني أزمةً كبيرة، وقد وصلنا بها إلى درجةٍ لا يمكن أن تُحتمل!

ومنذ أن استمعنا إلى حديث الطبيب، قضيتُ أنا وزوجتي ليالي طوالًا نتناقش في مشكلة السعادة المتوهَّمة. ولم أشعر بأن زوجتي توافقني الرأي إلى هذه الدرجة إلا هذه المرة، وانتوينا أن نحاول جاهدَيْنِ لتغيير الحالة التي نعيشها كما نصحنا الطبيب ونعيش حياةً سعيدة حقيقيةً، وليست مزيفة.

في البداية أخبرنا الطبيبُ أن السعادة هي إحساس ذاتي. ففكرتُ أنا وزوجتي في البحث عن إحساس السعادة، فعلى سبيل المثال، حينما نتناول الحلوى ندرك أن الطعم الحلو هو إحساس السعادة.

"حلوة المذاق! هذه هي السعادة الحقيقية!"

فجأة صاحت زوجتي قائلة.

وانتقلت عدوى إحساسها إليَّ، وشعرت بالسعادة الإيجابية التي تحدث عنها الطبيب. هكذا مضت الأيام، ونحن نتناول كل يوم ما يقرب من كيلوجرام من الحلوى حتى كشفت التحاليل أن نسبة السكّر في دمي قد تجاوزت المعدَّل الطبيعي.

وأخبرنا الطبيب أن سعادتنا تكمنُ في المقارنة. "التناقض بين الشقاء في الماضي وسعادة الحاضر"، فحينما نفكِّر في أيام الشقاء والمعاناة في الماضي الفائت، سنستشعر بالسعادة الكبيرة التي نعيشها الآن. هل شاهَدَ جنكيز خان التلفاز من قبل؟ كل ما كان يعرفه هو أن يُطلق السِّهام المارقة على النسور المُحلِّقة. وهل الإمبراطورة "تسي شي" كانت تستخدم الحاسوب؟ بالطبع لا. في أثناء الدارسة الابتدائية كنتُ أسير على الطريق الجبلي الوعر خمسة عشر ميلًا، والآن أستقل سيارتي حتى صارت قدماي عديمتي الجدوى مثل الزائدة الدودية في الجسم، وسأفقدهما عاجلًا أم آجلًا.

وعندما التحقتْ زوجتي بالمدرسة الإعدادية، ابتاعت كمامةً كي تتفادى البرد القارس في الصباحات على الطريق بثلاثة ماو[1]، وقد تلقَّت علقة ساخنة من والدها أفقدتْها أسنانها (وهو حماي الآن).. والآن لا تمسح أحمر الشفاه من على شفتيها الذي أضعف من أن يُقاوِم ريحًا أو مطرًا، وثمنه يكفي لتربية بعض الخنازير. وفي بعض المرات كنا نبكي من فَرْط السعادة، فتأثر الجيران في الشارع. وحينما علموا أننا كنا نبكي من فرط سعادتنا، مضى كلٌّ واحدٍ منهم بوجهٍ مُكفهرٍّ، ومن يومها ولم يُلقِ أحدٌ منهم التحية علينا. وربما يحسدُك الآخرون بسبب السعادة، هذا ما عِشناه بأنفسنا.

وبعد تجربة شعور السعادة لفترة من الوقت، بدأنا نشعر أن هذه السعادة لا تكفينا، ولا يمكن أن تستمر للأبد. فزُرنا الطبيب النفسي مرةً أخرى، وأعطانا نصيحة أخرى، وكشف لنا عن الملاذ الأخير للسعادة، وقال: من أجل الحصول على السعادة الأبدية علينا بالتفاني وتقديم الإحسان بلا حدود.

وانتويتُ أنا وزوجتي تنفيذ نصيحة الطبيب، في البداية تبنَّينا طفلًا صغيرًا من أطفال الشوارع، ولم يمضِ سوى أيام حتى تجمَّع إخوة اليتيم في البيت، ثم جاء والده واجتمعوا معًا في البيت. في البداية انتقلت أنا وزوجتي من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس، ثم من غرفة الجلوس إلى دورة المياه، وفي النهاية صرنا في الشارع... دائمًا كانت السعادة رفيقنا أينما رُحنا.

---

(١) الماو: عملة صينية تعادل عشرة قروش. [المترجم].

والآن ربما تستطيع رؤيتنا. نعيش تحت الكوبري، وفي أيام أخرى تحت شجرة على جانب الطريق. في أي مكانٍ ستجدنا. فنحن نتوقٌ إلى الحفاظ على شعور نهر السعادة الذي شقَّ مجراه داخل قلوبنا. وكرَّت الأيام ووطَّنتُ العزم أنا وزوجتي على التبرُّع بكُليتينا، ثم سنستمر في التبرع بأجزاء جسدينا للآخرين.. بهذه الطريقة ستُصاحبنا السعادة.. ستصاحبنا إلى الأبد!

أَطْلِقوا سَراحَه!

سيادة الضابط، من فضلك أَطْلِق سراحَه، هو ما زال شابًّا صغيرًا. نعم، هو اعتدى عليّ، لكن لا يمكن لَوْمُه وحده، فقد أخطأتُ أنا أيضًا، كما أن الإصابات ليست خطيرة. انظر، أستطيع رفع ذراعي، وقدمي اليمنى أَقْدِرُ على تحريكها، وقد التأمت ضلوعي المتكسرة، ولم تعد عيني اليسرى ترى الأشياء ضبابية كما مضى. ولا يمكن إلقاء اللوم فقط على الشاب فيما لحق بعيني من إصابة، فإذا لم أراوغ حينما ألقاني بالحجر، لما حدث هذا، ولما رشق الحجر في المنطقة بين الرأس والأنف، فهذه المنطقة ذات عظام صلدة، ولأنني أدرتُ رأسي، فرشق الحجر في عيني، ولا يمكن أن يكون هذًا خطأه!

سيادة الضابط، أنا رجلٌ أبلغ من العمر ما أبلغه، ولم أكذب طوال حياتي، وأجزم أنكم أخطأتم هذه المرة؛ فهو لا يضربني كل يوم، فقط في بعض الأوقات يعتدي عليَّ، وإذا كنتم تُشككون في كلامي، فاذهبوا واسألوا جيراني.

سيادة الضابط، أنا لا أخدعك. أنا بخير، ولم يُصبني شيءٌ. أنا عادة أتناول كميةً قليلة من الطعام، ودَعْكُم من هذه الشائعات المغرِضة، في بعض الأحيان أتناول وجبةً واحدة خلال يومين أو ثلاثة، لأنني أتبع حمية غذائية، وليس لأنه يمنع عني الطعام، تطلَّعْ إلى جسمي، فأنا لا أعاني شيئًا، نعم، نحيل بعض الشيء، لكن هذا بسبب اتِّباع نظام غذائي، كيف تقولون إنه ضربني، وألحقَ بي إصاباتٍ بالغة؟ ألا تراني؟ أستطيع الحركة وأعضائي الداخلية جميعها بخير، وهذه شهادة طبية تؤكِّد صحة أقوالي.

سيادة الضابط، لقد اعتدى عليَّ لأنني مَن بادرت بالضرب، فقد ضربته قبل عشرين عامًا، لأنه وقتها كان في الخامسة من عمره، طفلًا صغيرًا طائشًا، وحملَ سكين الفاكهة، وأصاب فخذ ابنة الجيران الصغيرة، حينها ركلتُه في مؤخرته أمام الجميع، والآن حينما أتذكَّر هذا الحادث ألوم نفسي.. ألومُها بشدة، فقد أخطأت حينما ضربتُه أمام الجميع، فكم تأذَّت مشاعره وقتها وأصَبْتُه بألمٍ كبير!

سيادة الضابط، لا تسجنوه! هو شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره، وما زال عُوده أخضر، وفي انتظاره الكثير من الأشياء العظيمة التي سيقدِّمها إلى وطنه! اللوم كل اللوم عليَّ أنا، فإذا لم أستدعِ الشرطة وقتها، فكيف كنتم ستعرفون بالأمر! ربما لا تعرفون أنه ابني! إذا وضَعتموه في السجن، فسيسخر مني أهلي وأصدقائي وجيراني، كيف سأرفع وجهي في وجه الآخرين؟!

كيف سأقابل أمَّه حينما يحين اللقاء؟ أتوسَّل إليك! أتوسَّل إليكم! أطْلِقوا سراح ابني، هو طفل صالح، لكن لا يعي الأمور.

سيادة الضابط، هل سألتني عن أمِّه؟ أمه هي زوجتي، وقد ماتت قبل خمسة أعوام، في ذلك الوقت كان ابني يبلغ عشرين عامًا، وقلما كان يضرب أمَّه، وأنا أشهد على هذا، وماتت فجأة، وكان بسبب عدم توخيها الحذر؛ كانت تقف على حافة الشرفة تنشر الملابس، وقد زلَّت قدماها، وراح يمزح معها وقتها، فدفعها برفقٍ، فسقطت من شُرفة البِناية.

وماتت!

حذاء جلدي أحمر

باتَ امتلاكُ حذاء جلدي أحمر اللون حُلمًا بهيجًا يُراود جيلين من عائلتي.

منذ الصغر وقد عانت البلدةُ الشقاء، وعاشت جميع العائلات حياةً قاسية، وكان الجميع ينتعلون أحذيةً متهالكة أو مطاطية (الحذاء المطاطي كان يُعرف أيضًا باسم حذاء التحرير)، وكان من المستحيل رؤية أحذيةٍ جلدية تنتعلها الأقدام. بينما الصغار كانوا يسيرون حُفاة في الربيع والخريف، ويركضون في كل ناحيةٍ من الأنحاء، حتى أنهم كانوا يذهبون إلى المدرسة عراة الأقدام.. وفي الشتاء يتسنى لهم فقط انتعال أحذيةٍ مصنوعة من القشِّ أو القطن القديم "أحذية التحرير".

وقد امتلكَ عُمدة القرية حذاءً جلديًّا أحمر اللون. وقد شاع أنه قد أحضر هذا الحذاء عند عودته من شنغهاي بعد التحاقه بالجيش والقتال هناك. والشيء الذي لم يُتحقَّق منه، هل اشترى هذا الحذاء بالفعل أم أنه قد سَرَقَه؟

وكان حذاء العمدة الأحمر يخطف الأبصار، وينتعله بضعة أيام في كل عام، وكانت أيام عيد الربيع.

وقد عَلِمَ الجميع في البلدة بهذا الحذاء الأحمر الجلدي الكبير، ومنذ بداية الخمسينيات، مع بداية العام الجديد، ظهر هذا الحذاء الجلدي الأحمر بين أهالي البلدة. وكان العمدة يرتدي سُترة زرقاء نصف جديدة، قصيرة الكُمَّين، وقد تهدَّل كُمَّاها، وحينما مضى على الطريق راح كُمَّاها يتأرجحان؛ لأنه لم يُدخِل ذراعيه داخل كُمَّي السُّترة.

وطوال عدة سنوات، ارتبط ظهور الحذاء الجلدي الأحمر بصوت الألعاب النارية، فكان الحذاء الجلدي الأحمر أشبه بملصقات الربيع الحمراء والفوانيس التي ترمز إلى حلول الربيع العليل، وحينما كان يرتدي العمدة الحذاء الأحمر الجلدي، كانت معنوياته ترتفع، ويشعر بزهو كبير، فكان هو الوحيد في البلدة المثقف الذي تفتَّحت عيناه على العالم الرحب، حتى أنه كان الرجل الوحيد الذي يعرف الاتجاه المؤدي إلى شنغهاي!

وقد جَلَبَ الحذاء الجلدي الأحمر العِزة والكرامة إلى عمدة البلدة، وفي الوقت نفسه جلب له المتاعب وسوء الطالع؛ ففي فترة تطبيق "حركة محاربة الشرور الثلاثة والشرور الخمسة"، تعقَّب أحد الأشخاص أحواله المادية ونمطَ حياته بسبب الحذاء الأحمر الجلدي، فشُكلت لجنة لدراسة الأمر، وصادروا الحذاء الأحمر الجلدي ذائع الصيت.

شعر العمدة بحزنٍ مرير، وحينما يُذكر هذا الأمر أمامه، يتحدث لسانه بقبيح الكلمات، وفي شتاء ذلك العام لم يخرج من بيته لمعايدة الأهالي، وكان المفترض أنه بسبب عدم وجود حذائه الأحمر، وبعد انتهاء الحركة، أعادت السلطات العليا الحذاء الأحمر إليه مرة أخرى.

غمرته السعادة وراح يضحك مِلء فمه، وحينما هلَّ الربيعُ الجديد رأى الأهالي اللون الأحمر القاني الذي يسطع مِن قدميه مرة أخرى. كرَّت سنوات أخرى، وجاءت حركة "التطهيرات الأربعة"، وأمسكَ فريق العمل الحركة بخطأ ضد العمدة، وعلى الرغم من أنه قد احتفظ بالحذاء هذه المرة، فَقَدْ فَقَدَ العمدة شيئًا من هيبته، ولم يقضِ العمدة العيد في هذا العام، فما الجدوى من وجود ذلك الأحمر خاطف الأنظار وقد راحت هيبة العمدة!

وعاد العمدة من جديد ينتعل الحذاء الأحمر، ويمضي به بين الأهالي وسط أجواء الربيع الاحتفالية الصاخبة، في ذلك الوقت كان الأهالي ينادونه "العمدة" أو "عمي الكبير" أو "عمي" أو "أخي الكبير" أو "زوج أختي"، لكن من وراء ظَهره اعتادوا أن يقولون عنه: "الحذاء الأحمر". حتى صار "الحذاء الأحمر" لَقَبَ عمدة البلدة.

وكم تاقَ أبي وأخي الكبير لارتداء حذاء العِزة والسُّلطة والزهو، لكن ظلَّت الرغبة قيد الأحلام.

انقضى أربعون عامًا ثم تركت البلدة. وبدأت ذكرى الحذاء الأحمر في أيام الصبا الخضراء تتلاشى من ذاكرتي رويدًا رويدًا.. ورحل العمدة قبل عامين، وربما يكون تم التخلُّص من الحذاء الأحمر قبل وفاته، وربما بعد وفاته.

وقبل بضعة أيام جاء أحد معارفي إلى بكين يبحث عني، وما إن وقعت عيناي عليه، لفت نظري حذاؤه الأحمر البرَّاق. فسألته على الفور:

- هل صِرتَ العمدة؟

- كيف عرفتَ؟ قد تسلَّمت المنصب منذ أيام.

فضحكتُ وضحك صديقي أيضًا. وفجأة طفا على جدار ذاكرتي مشاهد من طفولةٍ قد ولَّت.

الصَّبَّار

ذاتَ يوم حكى لي الكاتب "لي تشي"[1] بشغفٍ كبير حكاية، واقترح عليَّ أن أكتبها كقصَّة قصيرة. وقال إنها قصة حقيقية قد حدثَت بالفعل قد حكاها له صديقٌ كان في مهمة عملٍ في الجنوب.

– اكتبْها أنت. أنا الآن أكتب رواية، وليس لديَّ وقتٌ لكتابة قصة قصيرة.

كان الكاتب لي تشي كريماً معي، وأصرَّ بشدة أن تكون هذه القصة من نصيبي.

سأكتفي بأن تدعوني إلى تناول الطعام!

وبعد تناول الطعام، وافقتُ أن أهديه زجاجة نبيذ أبيض فاخرة، ثم صارت القصة الآتية من صوب الجنوب ملكي!

---

(١) كاتب صيني كبير، حصل على العديد من الجوائز الأدبية، آخرها جائزة ماو دون الأدبية.[المترجم]

كانت حكاية رئيس في المدينة لا يحب المال ولا يهوى النساء، ولا حتى مخطوطات كبار الرسامين والخطاطين ولوحاتهم، لم يعبأ بأيٍّ منها، وقد أثار عزوف نفسه عن هذه الأشياء غضبَ هؤلاء المنتفعين وحيرتهم، الذين يحاولون تحقيق مصالحهم بطُرق غير شرعية، فجميع الهدايا والأموال التي أرسلها هؤلاء من أجل تنفيذ مشروع من المشروعات أو التدرج في الوظيفة أو الحصول على ترقية أو شراء قطعة أرض عادت خالية الوفاض من حيث أتت!

كم هو أمرٌ كريه أن يكون رئيسك غير مهووس بهواية من الهوايات! قال هؤلاء المرؤوسون والرؤساء الذين أغلق باب الأمنيات في وجوه عطاياهم الثمينة وهم يطلقون التنهيدات والحسرات.

– مستحيل! لكل إنسان نقطة ضعف! هناك أشياء تثير كل شخص منا، وهذا شيء لا يُصدِّقه عقل. قال أحد الأصدقاء الماكرين وهو يرمز بعينه، وكان يجلس معنا على ذات الطاولة يحتسي الخمر.

– قد جربتُ معه كل شيء. ولم يفلح شيء! فهو رجل صارم ومتحفِّظ، لا يزيل الحواجز بسهولة مع أحد.

قال رجل من صوب الشرق في قلة حيلة:

– هناك البعض لديهم هوايات غريبة! لديَّ صديق من صغار الموظفين، كان يهوى جمع النِّعال، فقد خصص غرفتين في بيته للنعال، جميع أشكال

النعال الكبيرة والصغيرة وأنواعها، المصنوعة من جلد النمر والعاج والزجاج وأنواع أخرى.....

– وأعرف أيضًا مدير إدارة التخطيط. حينما فحصت لجنة المراقبة بيته ووجدت مئات من منافض السجائر المصنوعة جميعها من الذهب الخالص. فقال مدافعًا عن نفسه: ما ذنبي في هذا؟ أهدوني منافض للسجائر، ولم أنتبه أنها مصنوعة من الذهب، فكيف أرفض الهدية؟ من يُخيَّل إليه أنها مصنوعة من الذهب؟

– سمعت أن الرئيس يهوى تربية الزهور.

قال ذلك الماكر وهو يرمز بعينه:

– تربية الزهور؟ تربية الزهور؟ زهور الزنبق لم تزهر بعد! هل نرسل باقة من الورود ونحصل على أمنيتنا؟ إذا كانت هذه هي الوسيلة، فسأرسل إليه شاحنة من الزهور. قال الرجل من صوب الشرق بأعلى صوته:

.....

– اخفض صوتك! هو يحب الصبار بل نوعًا رديئًا من الصبار.

– الصبار؟ أليس هو هذا النبات القبيح المليء بالأشواك، ما إن تلمسه يَخزك؟

– بلى. ألا تصدقني؟

– هل حينما تُحرق الجرائد أمام القبر ستخدع الأرواح[1]! من يصدق ما تقوله! ثمن هذا الصبار القبيح لا يساوي حتى ثمن حبة من الملفوف!

– لن أجادلك! لن أجادلك! إذا لم تصدقني فاسأل سائقه وسكرتيره. سيقول لك أنه مغرم بالصبار!

– تذكَّرت! قد حدث هذا مرة!

طَرَقَ شخصٌ آخر على فخذه وتقريبًا أنه قد طرق على الكأس قائلًا:

– في الشهر الماضي ذهبت إلى زيارته في العيد، وحدَّثني عن أمر الصَّبار وقال: إنه يحب نوع صبارٍ ينمو في المكسيك اسمه "قو قوق قو"... لا أعرف، اسم طويل وغريب.

– هل صرتَ بطة؟ "قو قو قو". أليس هذا المكان يسمى "غوادلاخارا"، وهي ثاني أكبر مدينة في المكسيك. قد ذهبت إلى هناك واحتسيت تكيلا[2]!

– نعم! نعم! هناك.. صبَّار "غوادلاخارا". قال: إن هذا النوع نادر ولونه وشكله غريب، وقال: إنه زرع أصيصًا من هذا الصبار، لكن لأن زوجته قد أغرقته بالماء، فمات، وتألم كثيرًا وقتها، نعم، وأذكر أن الرئيس انتقد الأدباء

---

(١) اعتاد الصينيون عند زيارة الموتى خاصة في الأعياد حرق النقود أمام قبور ذويهم وكانت في الماضي نقودًا حقيقية تعبيرًا عن ولائهم للموتى. [المترجم].

(٢)تكيلا: مشروب كحولي ويصنع من الصبار ويعود أصله إلى المكسيك. [المترجم].

الصينيين لأنهم يهتمون فقط في كتاباتهم بأزهار البرقوق والأوركيد والبامبو والأقحوان، ونحن الموظفين نفتقر إلى الذوق، فنهوى زراعة الصبار، لأنه لا يحتاج إلى الري أو التسميد أو التهذيب. كما أن رؤيتي أشواكَ الصبار سرعان ما تُذكِّرني بنقد الجماهير، وتكون كجرس إنذار لي.....

وسرعان ما انتشر خبر وَلْع الرئيس بهذا النوع من الصَّبَّار، وسرعان ما احتفى من المتاجر. وبعد التحقق عرفوا أن هذا نوع نادر من الصبار لا يُباع إلا في متجر صغير للزهور يسمى "زهور شي رن"؛ لذلك بدأ يتردد على المتجر المتواضع هؤلاء ممن يحاولون التودُّد إلى الرئيس. وكانت صاحبة المتجر دائمًا تعتذر إليهم بوجه مِلؤه الابتسامة، قائلة: إن هذا النوع غالٍ جدًّا، وقد باعت آخر إصيص منه منذ قليل، وإذا كنتَ ترغب في الشراء ينبغي أن تحجزه في البداية، وتنتظر دورك. فهذا النوع من الصبار يُهرب سِرًّا من المكسيك عبر قناة مائية من المكسيك.

تودَّد الجميع إلى صاحبة المتجر المتواضع، وهُرعوا إليها يدعونها إلى تناول الطعام، وأغرقوها بالهدايا، لكنها رفضت الهدايا ودعوات الطعام متذرعةً بأنها تبيع الزهور فقط ولا تبيع نفسها.

وبسبب كثرة زبائن المحل يومًا بعد يوم، ارتفع ثمن أصيص الصبار، والزبون الذي يرغب في الحصول على أصيص بالطبع عليه أن يدفع أكثر، ومن يدفع أكثر تكون له الأسبقية في الحصول على الأصيص.

أما عن نهاية الحكاية فهي كالآتي:

هذا النوع من الصبار الذي صار أغلى من الذهب يصل كل يوم في الموعد المحدد إلى متجر الزهور، ثم يذهب إلى مَنْ دَفَعَ أكثر، وفي المساء يصل إلى بيت الرئيس، وفي بعض الأيام كان يبقى هناك حتى منتصف الليل، وبعد أن يسترق الرئيس النظر ويملأ عينيه من منظره، يُعيده ثانية إلى متجر الزهور. وصار هذا النبات قبيح الشكل، الشاحب، يتنقل كل يوم بين غرفة الجلوس في بيت الرئيس ومتجر الزهور، حتى صار مع مُضي الأيام ذابلًا وجافًّا، وقد التوت أوراقُه وتهدَّلت، لكن ما دام الرئيس يهواه، فسيركض خلفه الجميع، ويدفعون فيه أغلى الأثمان.

وقد ذاعَ بين الناس أن السيدة صاحبة المتجر هي شقيقة زوجة الرئيس، وقال البعض إنها عشيقته، وقال أشخاصٌ إنها الاثنتان معًا.

تسمُّم غذائي

يرى الطِّبُّ الحديث أن بقاء "تشو جوي فو" على قيد الحياة حتى هذه اللحظة معجزة من المعجزات.

ومثل أطفال كثيرين في المناطق الريفية الفقيرة وُلد "تشاو فو جوي"، ولم يكن لدى أمه حليب في ثدييها، وقد اعتاد الطعام الممضوغ من قِبل والديه والجيران، كانوا يفتحون فمه الصغير، ويدسون الطَّعام داخله كي يعيش، وقبل أن يتم عامه الأول، بدأ يلعق بقايا جميع أنواع الأواني حتى يحصل على احتياجاته اليومية من الطعام. فلعق صحون الطعام والسكاكين وصناديق طعام الخيل والكلاب، وحوض طعام الخنازير وغيرها من الأشياء.

وبعد عامين بدأ يبتلع الأشياء الخطيرة مثل الكبار.

كانت الفواكه والخضراوات والحبوب الغذائية تُقدَّم إلى أهالي البلدة، وما يتبقَّى لم يكن يكفي لبقية العام، فكان الأهالي جميعهم لمدة شهرين أو ثلاثة يواجهون أيامًا عصيبة.. أيامًا حالكة السواد.

حتى بعد حصاد الخريف، لا يقدرون على تناول وجبةٍ واحدة هنية، فكان الاقتصاد وتوفير الطعام هما قدرة خاصة يتمتع بهما "تشاو فو جوي" وغيره من أهالي البلدة.

وحينما يكونون نباتيين، يتناولون أوراق الشجر واللحاء والجذوع والنباتات والأعشاب البرية، وفي بعض الأوقات يصادفهم الحظُّ السعيد حينما يجدون قطة ميتة أو كلبًا أو فأرًا ميتًا، فيكون حدثًا سعيدًا لهذه الأسرة، على سبيل المثال في سبوع المولود أو زواج أو أي حدث سعيد من هذا القبيل، وتعثر الأسرة على خنزير ميت، فيدعون الكثير من الضيوف، وكلما تكاثَفت طبقة الشحم على وجه الحساء في القِدْر دَلَّ على ثراء هذه العائلة.

وإن لم يستطع الحصول على الحيوانات الميتة فيسرقها، فكان يسرق الخنازير والكلاب والمواشي الميتة من الوحدة البيطرية.

ويسرق حبوب الفول السوداني والقمح المرشوشة بالكيماويات، حتى وإن كانت ملقاة على الأرض يسرقونها ويضعونها في أفواههم. تتحطم إرادة الصغار أمام شبح الجوع، فلا يعبؤون بحصاد الخريف، ويركضون إلى الغيطان لسرقة الحبوب الغارقة في الأسمدة والكيماويات الضارة.

وقد اعتاد "تشاو فو جوي" في الصِّغر فِعل هذا، فكان يقود مجموعة من الصغار من في مثل عمره، ويذهب إلى البساتين المزهرة، ويسرق التفاح الأخضر المرشوش بمبيد "١٠٥٩"، وهو مبيد سامٌّ، ولم أسمع من قبل أن أحدًا من الصغار قد مات من التسمم، وليس مثل الآن تنقع الفاكهة ليومين

وتغسلها عشرات المرات وتخشى في النهاية من المبيدات المرشوشة، لكن أهالي البلدة الفقراء لم يكونوا يأبهون في ذلك الوقت بمثل هذه الأشياء.

ولم يكن "تشاو فو جوي" هو هذا الشخص الوحيد في البلدة، بل في تلك السنوات الفائتة كان الجميع على نفس شاكلته، لا يعرفون ما معنى "التسمم الغذائي"، على الرغم من أن جميع الأشياء التي يتناولونها قد طالتها يَدُ العفن، ونما عليها الشعر الأخضر، وزحف فوقها الذباب والديدان البيضاء.

وقبل بضع سنوات نزل إلى المدينة، وكان يجمع القمامة من كل ناحية من الأنحاء، كان يأخذ كل ما يلقيه أبناء المدينة من خبز وكعك وبقايا الدجاج والأسماك واللحم في صناديق القمامة، ويضعها في أكياس بلاستيكية، كان يتناول بعضها والبقية يأخذه معه إلى البلدة، لتتناوله زوجته وابنه، حتى الجيران كانوا يستنفعون بشيء من هذه الأطعمة. تحسَّنت أحواله عن ذي قبل، وكسا اللحم الجسد النحيل، وينبغي أن تعلموا أن رؤية شخصٍ بجسد مكتظ بالشحم واللحم في القرية كان شيئًا نادر الحدوث.

وقد انتبه أحدُ الأطباء في المدينة إلى "تشاو فو جوي". كان يومها يلتقط بقايا الطعام من سلة القمامة من أمام بيت الطبيب التي باتت طعامه اللذيذ، شعر الطبيب بالذعر، واصطحبه إلى المشفى لإجراء الفحوصات اللازمة، وقد أذهلت نتيجة الفحوصات الطبيب، فقد كانت جميع الفحوصات طبيعية ولا شيء بها.

أشفق عليه الطبيب، وأعجب في الوقت نفسه به، فدعاه لتناول الطعام في مطعم فاخر، لم يَرَ "تشاو فو جوي" طوال حياته مثل هذه الأصناف الفاخرة من الطعام، فأكل وهو يشعر بسعادةٍ بالغة، وشرب ثلاث زجاجات من العصير الطازج.

في تلك الليلة الليلاء، تقيَّأ "تشاو فو جوي" كُلَّ ما في جوفه، وأصابته قُشعريرة، ولحسن الحظ وجده شحاذٌ على الطريق، فأسعفه.

وتقريبًا فَقَدَ "تشاو فو جوي" حياته في تلك الليلة، ومنذ يومها وهو يتحدث إلى الآخرين بأن الفقراء لا يمكنهم تناول أطعمة نظيفة وطازجة، فهذا سيقودهم إلى موتٍ حتمي، وإذا تناول أهالي القرية طعام أهل المدينة، فلا محالة سيُصابون بالتسمُّم!

كله سلف ودين!

أخبره الطبيب أن المرض يستدعي بقاءها في المشفى، وينبغي دَفْعُ عشرين يوانًا دفعةً أولى لتبقى في المشفى، وهذا أمر غير قابلٍ للتفاوض!

جلست الزوجة على المقعد الطويل في الرُّدهة وهي تتصبَّب عرقًا، فهُرعت الممرضة تطلب منا أن ننهض من فوق المقعد، تورَّم رأسي، ورحتُ أواسي زوجتي ضاحكًا، وتوسلتُ إلى الممرضة وأنا أهزُّ رأسي، وأفكر في العشرين يوانًا المخيفة.

كان عليَّ إنقاذ حياة زوجتي، تركتُ زوجتي مستلقية على المقعد بعض الوقت، وشرعتُ أفكِّر في طريقة للحصول على المبلغ المطلوب.

أقترض؟ مِمَّن أقترضُ المبلغ؟ أُغلقُ المصنع الذي أعمل به، وهناك رواتب مستحقة لم يدفعوها، فكيف سيعطونني سلفة؟ ذهبت إلى زميلي في العمل، ولم يتمكن من مساعدتي، فقد ابتاع منذ فترة قصيرة بيتًا، حتى هو مديون! وقال لي: وإذا لم تمانع، لديَّ حفنة نقود في جيبي خذها! شكرتُ لُطفه، وكان

عليَّ أن أجمع رسوم المشفى، فعلى الأقل أدفع لهم عشرة آلاف يوان، فالوقت يُداهمني ولن يمهلني فرصة!

فكَّرتُ في زملاء المدرسة، كان أحدهم يعمل في مجال العقارات وحقَّق ثروة كبيرة، ولا يمكن أن يبخل بها في جيه عليَّ، أخبرني زميلي أنه في الفترة الأخيرة خسر خسائر فادحة في البورصة، حتى أنه فكر في الانتحار بأن يقفز من الشُّرفة، لكنه خشي ألَّا تقدر أن تتحمل أسرته مصاريف الجنازة، واضطر لاستكمال حياته، فقد عاش بعض أيام حياته في نعيم، ورأت عيناه كل مباهج الحياة.

هُرعت إلى رفاق الحرب القدامى، كان لديَّ رفيق حربٍ قديم، وقد كوَّن ثروة كبيرة طوال هذه السنوات، وأسَّس مطعمًا ويقود سيارة " BMW".

ولم ينتظرني لأفتح فمي، وسرعان ما قال أنه كان يبحث عني في كل مكان، فأحواله متعثرة في الآونة الأخيرة، ولديه نقصٌ في السيولة، وكنتُ أرغبُ في الاقتراض منك. فارتجفت قدماي وسرعان ما ركضتُ من أمامه، وسمعته هو يضحك عاليًا من الخلف.

دائمًا يبقى باب وحيد من الأمل! وفجأة قفزتْ إلى عقلي صورة ابن أخي اللطيف، فقد تربَّي في بيتنا حتى كبر واشتَّد عُودُه، وعاش ثلاث سنوات في بيتي، وقد ذهب صوب الشمال، وقضى بضع سنوات، وربح مبلغًا لا بأس به من التجارة هناك، فلم يفعل شيئًا سوى جمع المال.

وبعد الاستماع إلى مُرِّ شكوتي واساني بعض الشيء، وكان هذا الشاب كريمًا ومخلصًا. وقال هل من مشكلة، أليس عشرون ألف يوان ستنقذ حياة زوجة عمي، سأعطيك إياها، تفضَّل يا عمي!

ووضع أمامي حزمتين من النقود الجديدة.

– شكرًا لك! هذه اللحظة التي ينبغي أن يظهر بها الأقارب، الدم لا يمكن أن يصير مياهًا.. الدم أقوى من أي شيء، ارتجفت يداي قائلًا، كأنني كنتُ على وشك أن أنحني أمامه.

قلت له:

– سأكتب لك إيصالًا بالمبلغ.

– هذا أفضل حتى لا يرد عمي مبلغًا أكبر.

فأخذتُ القلم، وتعهَّدتُ بلساني أنني سأعيد إليه المبلغ بزيادة سنوية ١٠٪، فابتسم ابن أخي قائلًا إنه يعرف عمَّه، رجل يفي بوعده، ولم أسمع عنه كلمة سيئة منذ الصِّغر، ودائمًا رجل صاحب كلمة.

وبعد أن كتبتُ الإيصال، شعرتُ أنه قد خالَطَه الندمُ، فأخرجتُ من جيبي ألفي يوان وأعطيته إياها مُقدَّمًا الفائدة. وتعهدتُ أمامه أنني لن أتنصَّل من كلمتي، حتى لو كلَّفني الأمر بيع دمائي أو كُليتي، لن أنكث بوعدي.

– شكرًا لك عمي، فلتذهب إلى المشفى لتدفع الرسوم، هل ستعدُّ العشرين ألف يوان؟

– لا داعي! كيف لا أثق بابن أخي؟

حملتُ النقود بطريقةٍ وحشيةٍ وركضتُ إلى المشفى.

راحت الموظفة تتطلع إلى النقود مرة تلو الأخرى وفي النهاية صاحت قائلة:

– النقود مزيفة! جميعها مزيفة!

كنتُ أرغب أن أصفعها على وجهها حتى أُطبِّقه بين يدي كفطيرة محشَّوة، وسرعان ما جاء ضابطا الأمن والشرطة واحتجزاني في غرفة صغيرة، وأصابني التحقيق بدوار حاد. جاء ابن أخي لرؤيتي وقال:

– عمي، إذا كنتَ لا ترغب في إعادة النقود فلا يهم، لكن لماذا تريد إيذائي!

اندلعت ثورة الغضب داخلي، حتى أنني رطمت رأسي في الحائط، وبعد أن استفقتُ من غيبوبتي احتجزتني الشرطة ثلاثة أيام، وبعد أسبوعين أطلقوا سراحي، وكانت زوجتي قد ماتت وحُرق جُثمانُها.

لم تُسبِّب لي الشرطة المزيد من المتاعب، بينما ذلك الشاب– ابن أخي– الأمين المخلص كان يأتيني كل ثلاثة أيام وهو يحمل إيصال الأمانة، ويطلب سداد الدَّين، وحثَّني على بيع دمائي أو كُليتي بعشرين ألف يوان كما تعهدتُ!

المثقف

فَقَدَ لاو منغ الكثير من أصدقائه بسبب معرفته الواسعة، وثقافته رفيعة المستوى، ولم يبق بصحبته سوى قطٍّ أسود عجوز، في كل يوم ما إن تُودِّع شمس النهار كبد السماء وتنحدر ناحية الغروب، يحمل قِطَّه الأسود الذي يبدو عليه النعاس، ويجلس على مقعد مكسور تحت شرفة المطبخ، ويبدأ التحدُّث إليه في علم الفلك والجغرافيا والرسم والموسيقى والأساطير اليونانية القديمة.

وقد استطاع لاو منغ ذلك الفَطِنُ الموهوب في عمر الخمس سنوات قراءة ثلاثمائة بيت من شعر تانغ، وذاع صِيتُه أنه الطفل المعجزة، وفي العام الثالث الابتدائي بلغ مستوى طالب في المدرسة الإعدادية، وقد اتسعت معارفه بشكل مذهل، ولم يطلب فقط زملاؤه المساعدة فحسب، بل تناقَشَ معه بعض الأساتذة في الدراسة، فحظيَ بإعجاب الطلاب والأساتذة وحبهما. ويمكن القول إنه عندما كان في المدرسة الابتدائية بدا مستواه كأنه طالب في

المدرسة الإعدادية، وعندما كان في المرحلة الإعدادية كأنه في المرحلة الثانوية، وفي المرحلة الثانوية كأنه طالب في الجامعة، وفي الجامعة صار مستواه كأنه أستاذ، ثم أُطلق عليه وسط محيط الطلاب والزملاء لقب "أستاذ الأساتذة".

لكن "أستاذ الأساتذة" لم يكن أستاذًا. وبعد التخرج لم يصبح أستاذًا في الجامعة، لكنه عمل أمينَ مكتبةٍ في مكتبة الجامعة، وليس ذلك لأنه لم يرغب في العمل في مجال التدريس، بل لأنه لم يكن يمتلك المؤهلات التي تجعله كفئًا لهذه المهنة، فاستوجب على الأستاذ الجامعي الحصول على الدكتوراه، على الأقل يكون حاصلًا على درجة الماجستير، وقتها كان لاو منغ في ذروة فخره بذاته، مُتذرِّعًا بأنه لا يجد من يليق أن يكون أستاذه! وقد أفْقَدَه هذا الغرور فرصة الحصول على مؤهلات الأستاذ الجامعي، وكان يسترق اللحظات، ويتبادل الأحاديث خلسةً مع القديسين وكبار الشخصيات في أحد أركان المكتبة وهو يُطالع الكُتب، وحتى الآن لا يزال يشعر بهذا الزهو مُدَّعيًا أنه يتعامل مع شخصياتٍ رفيعة الشأن، ويتجنَّب التعامل مع حثالة البشر، وأنه "يتطلع إلى أسراب النمل الزاحفة على التلال من فوق قمة جبل إفرست".

وبسبب معرفته الواسعة، وحسِّه الجمالي العالي وذوقه الرفيع، لم يعد يُوقِّر حتى النساء، فقد تعرَّف على الجمال القديم، وتأثر بالجمال اليوناني عبر أساطير الزمان، وراح يصف اللحم الحي المتحرك قائلًا: "مبتذلات... مبتذلات جدًّا! لا أطيق!" فاستطاع أن يحتمل قسوة الوحدة ومرارتها، لكنه لا يحتمل أن يتدنى بمستواه ويعيش مع واحدةٍ منهن تحت سقف بيتٍ واحد.

يحتاج الممثل إلى خشبة المسرح، ويحتاج المدرس إلى منصة شرح الدرس، بينما يحتاج القيادي إلى منبر الرئيس، لكن لاو منغ صاحب بحور المعرفة الواسعة لم يجد المكان المناسب كي يكشف عن ثقافته اللامحدودة، فلم يسمع صوت تصفيق الجماهير ولا هتافاتهم، وبدون تشجيع الجماهير فَقَدَ شعوره بقيمته بذاته، وفي الوقت الذي كان يستمتع بوحدته المختلَقَة، كان الألم ينخر في روحه عميقًا، فكان على قدر كبير من الثقافة، لكن لم يحصل على الدكتوراه، بارعٌ في الحديث، وليس بارعًا في الكتابة، مثقف بلا منصةٍ أو جمهورٍ، مثل بطلٍ مغوار لا يستخدم قوته. فقد كان مثقفًا، لكن من دون جدوى.

وحينما يجتمع زملاء الدراسة كان يجتمع معهم، واعتاد الحديث أمام الجميع، سواء كان الحضور أشخاصًا يعرفهم أم لا، ويطلق للسانه العِنان.. يتحدث في أي شيء وفي كل شيء. يقاطعهم ليكون هو المتحدِّث الوحيد. لم يكن هناك ما لا يعرفه، ولا يفهمه، حتى وإن كان يتحدث في شيء ضئيل دائمًا ما كان يرجعه إلى العصور الغابرة، وينطلق من عهد الإمبراطور "ياو شون"[1]، ويظلُّ يتحدَّث ويتحدث عن التفاصيل، وكان دائمًا يَقْرِنُ حديثه بعبارات مثل: "أنت لا تفهم"، "أنا أعرف أنك لا تملك هذه الخلَفية الثقافية"، "هذا أمر كبير، من المؤكَّد أنك لا تعرفه"، "هذا أمر معروف، فكيف لا تعرفه!" ومثل هذه العبارات السخيفة التي تثير الضيق في نفوس مستمعيها.

قد فهمه زملاؤه، وعزفوا عن الجدال معه، وبلا شك كان معظم الزملاء يعرفون حدود ثقافتهم ومعرفتهم، ولا سبيلَ لإقناعه، فكانوا يتركونه يتحدَّث

(١) أحد أباطرة الصين. [المترجم].

وحده، بينما هم يجلسون يحتسون الخمر، ويتسامرون دون أن يعبؤوا بصحة ما يقوله من عدمه، وحينما يعلو الضجيج ويحدث هرج ومرج، يستشيط غضبًا، ويقع على الطاولة ويطلب منهم التزام الهدوء، فيضحك الزملاء من أمامه، ويسترسلون في وصلة الحديث والشرب مع بعضهم البعض.

كان لاو منغ يتعجَّب من ضحالة الزمن وأن أمثاله من المثقفين لا يحظون بالتقدير والاحترام الواجب، وكان يطمح لتحقيق حلمه بأن يصبح "ملك الفلسفة" مثل أفلاطون.

وبدأ يقلُّ تجمع الزملاء معه، وحينما يظهر مصادفة، يجد الجميع أعذارًا حتى يغادروا، كان يرغب في أن يبثَّ الآخرين معرفته، لكن لا أحد كان مُرحِّبًا به. لم يشعر بإحساس الخسارة كما ظن الآخرون، بل على العكس ما من شخص إلا وكان يحتقره، وفي المقابل احتقره الجميع بذات القدر، وعجزوا أن يتفهموا أنه يمتلك قدرًا كبيرًا من الثقافة ويرغب في الحديث وحده، ودائمًا ما كانت تتحوَّل المناسبات الاجتماعية إلى منتديات فردية يكون هو المتحدث الوحيد بها، ويكون الحوار فرديًّا. فنحن في عصر يرغب الجميع في الحديث، فمن سيتساهل مع شخص يحتكر الكلام وحده؟!

وكان القط الأسود هو المعجب الوحيد والمشجع للاو منغ، فكان يجلس يستمع إلى ثرثرته المملة، وهو يشخر، وقد غلبه النعاس.

وثيقة التأمين

ينبغي الاعترافُ – على الرغم من أن هناك بعض الأمور أدَّعي معرفتها – أنني كنتُ جاهلًا بأعمال التأمين التي تقدَّمت مع العصر.

التأمين هو تأمين على حياتك التي تتعرض للمخاطر والكوارث، وقد شرح لي صديق ضَيِّق الأُفق من قبل مفهوم التأمين على هذا النحو، ولو علمت شركات التأمين هذا التفسير لاستأجروا شخصًا ليلقنه علقة ساخنة تجعله يُصاب بدوار حاد، لكني كنتُ أكثر مهارةً من هذا الأحمق، في الحقيقة كان مفهومي عن التأمين لا يختلف عما قاله صديقي، لكني دائمًا كنتُ أعقد لساني عن الكلام، وليس مثله أُثرثر بالكلام أينما رُحت.

ورغم أنني لم أكن على علم بمثل هذه المفاهيم والنظريات عن التأمين، فإنني كنت أرى موظفي التأمينً في كل مكانٍ حولي، وهؤلاء الجواسيس من دائرة الأصدقاء الذين لم يكشفوا عن هويتهم كونهم موظفي تأمين، وكان تجنُّب موظفي الـتأمين أو ملصقات دعاية شركات التأمين التي تحاصرك كشبكة العنكبوت أصعب من أن تلمس السماء المرفوعة بيديك!

حينما تسير على الطُّرقات، ستجد فتاة حسناء تأسرك بابتسامتها الحلوة وتتبع خطواتك، ومن المؤكد تستر خلف هذه الابتسامة الساحرة وثيقة تأمين. حينما تكون على متن الطائرة أو على متن القطار أو على متن القارب، ستجد من يُلقي عليك التحية، ويساعدك في حمل أمتعتك، وعلى الأرجح هم من خبراء التسويق يعملون في شركات التأمين، وأنتَ مُستلقٍ على فراشك وتحلم بأن تنعم بقيلولة النهار، إذ بك تسمع بقرع على البابِ فتستفيق من غفوتك الحلوة، وتكون في معظم الأوقات أيادي هؤلاء خبراء بيع التأمين، بينما في المطاعم والفنادق ودورات المياه ستسمع هذا الصوت، "أريد شراء وثيقة تأمين" يا إلهي! هؤلاء أصحاب القلوب الحانية والعطوفة يندفعون نحوك.

لا شك أن الـتأمين يجلب الفوائد الكبيرة للدولة وللأشخاص، وأنا أقدر على قول هذا، وليس فقط أنا مَن أقَرَّ بهذه الحقيقة، لكن صديقي "داقو" وهو مثل أخي الكبير يُقرُّ أيضًا بهذه الحقيقة.

"داقو" هو زميل الدراسة من أيام المدرسة الابتدائية حتى الجامعة، وتوطدت علاقتنا حتى أننا كنا نرتدي سروالًا واحدًا... أقصد "مايوه السباحة". "داقو" شخص صادق إلى حَدٍّ كبير، في بعض الأوقات حينما أقول شيئًا ولم يصدقه أحدٌ، وكنت أطلبُ دعمه ليُصدِّق على كلامي، فسرعان ما يقتنع الطرف الآخر، وعلى الرغم من أن تصرفاته بها شيء من الحماقة، فإن كل مَن يعرفه يعتبره مثالًا للصِّدق.

والمرة الأولى التي اشتري بها وثيقة تأمين كانت بناء على اقتراح "داقو"، قال يومها إن لديه زميلًا في شركته لَعِبَ الحظُّ لُعبته معه، وابتاع أول أمس وثيقة تأمين ضد الحوادث، والأمس صدمته سيارة ومات، وكسبت عائلته تعويضًا كبيرًا. فغبطته كثيرًا وسرعان ما ابتعت وثيقة تأمين ضد الحوادث.

ومرة أخرى ابتاع جاري وثيقة تأمين ضد الحرائق، وما لبث أن مضى شهر ونشب حريق في منزله وقضى الحريق على كل أثاث البيت، اللعنة! كم هو محظوظ! والآن يسكن في بيتٍ جديد وقد ابتاع كل أثاثه من الخارج.

بهرني حديثُه، فابتعتُ وثيقة أخرى ضد الحرائق.

وفي كل مرة كان يتحدث معي عن التأمين، كانت حكايته تسلب عقلي. في كل مرة يخبرني حكاية جديدة عن حوادث التأمين، فسرعان ما ابتاع واحدة، فقد ابتعتُ حتى الآن وثيقة للتأمين على الممتلكات والحياة، وتأمين على زوجتي وأطفالي، ويدى اليمنى واليسرى، وعنقي وفخذي وساقيَّ وأسناني وعينيَّ والبروستاتا... وكل شيء في جسدي أمَّنتُ عليه، كل شيء يمكن التأمين عليه قد أمَّنتُ عليه. وأخبرني أنه فَعَلَ مثلي، وابتاع شتى أنواع وثائق الـتأمين، لكن كان يزيد عني في وثيقةٍ واحدة، فقد أمَّن على نهدي زوجته السابقة.

لكن لم يحالفني الحظ الكبير مثل "داقو"، فقد انتظر سنوات طوال يقع مكروه حتى تدفع لى شركة التامين تعويضًا. لم تصدمني سيارةٌ، ولم ينشب حريق هائل في بيتي، ولم أفْقِدْ شيئًا، حتى أسناني لم تسقط! فقد ضاعت كل

وثائق التأمين سُدًى. لكن "داقو" قد نال ما كان يتمنى، فقد مات غرقًا بالأمس في أثناء السباحة، فأحسستُ بالفرحة من أجله.. فكم كان يتطلع إلى مثل هذا اليوم السعيد منذ وقت طويل!

لكن لسوء الحظ، لم يبتَعْ "داقو" أي وثيقة تأمين، فقد خدعني كل هذا الوقت، وقد أخبرني زميلٌ آخر أن "داقو" كان يعمل في شركة التأمين لسنوات طويلة، وهذا لم أكن أعرفه على الإطلاق، فطوال هذه السنوات وأنا أظنُّ أنه يعمل في إحدى المؤسسات الخيرية كما كان يزعم، وكنتُ أشعر بالحزن من أجله.

ولحسن حظي فقد دفعت شركة التأمين تعويضًا لي عن "مايوه السباحة"، لأن "المايوه" كان قد اقترضه "داقو" مني.

حقيبة الأستاذ موه

لم تفارق حقيبة الأستاذ "موه" يده – على الأقل – نصف حياته، كأنها تحمل داخلها أمجاد حياته.

والمرة الأولى التي قابلتُ الأستاذ موه كان وقتها تقريبًا في الستين من عمره، وقد شابَ رأسُه، ولم يتبق سوى حفنة من شعرات سود، فتح حقيبته، وراح يبحث عن شيء بداخلها، ثم أخرج ورقتين، وكانتا سيرته الذاتية، وقد دوَّن عليها لقب عائلته واسمه وجنسه وقوميته وجنسيته ومؤهلاته العليا وموقفه السياسي، كما دوَّن تاريخ ميلاده.

وُلد في عام ١٩٣٠، في ذلك العام كان في الخمسين من عمره، وقد اختلف هذا عمَّا قدَّرته له. وتم كتابة شيء بالحبر الأحمر للفت انتباه القارئ ... في الرابع عشر من أغسطس في عام ١٩٤٥ كان اليوم الذي شارك في العمل الثوري. وحينما كان يقدم السيرة الذاتية، دائمًا ما كان يتحدث عن هذا اليوم المجيد، وكلما توغَّل في الحديث زادت حماسته، وارتفع صوتُه حتى يغدو المستمع يومئ برأسه ويقول نعم دون توقُّف.

وقد شارك الأستاذ موه في الحرب ضد اليابان، وفي اليوم التالي كانت القوات اليابانية قد انهزمت. فقال له أحد الأشخاص مازحًا: "أنت رجل متمكن! لم يتمكن الجيش من هزيمة اليابان طوال ثماني سنوات، وما إن انضممتَ إلى الجيش، انهزمت القوات اليابانية، وولوا هاربين. يا لك من رجلٍ متمكن!"

فأجاب بشيء من الرضا: "ليس الأمر يتعلق بي، الأمر يتعلق بكيفية التعامُل مع المتقاعدين على المعاش!"

وقد حوت حقيبة الأستاذ موه أشياء كثيرة، وكما رأيت هناك أكثر من شيء ثمين يريها كُلَّ شخص يقابله، وقد رأيتُ من قبل هذه الكنوز مراتٍ ومراتٍ، لا حصر لها: شهادتي تقدير، وخطاب تسريح من العمل، ودعوتي لحفل حديقة اليوم الوطني، وثلاث بطاقات هوية لحضور مؤتمرات، وصورة جماعية مع كورال غنائي وقادة الدولة (كان طولها مترًا ووُضعت في أسطوانة دائرية) وخمس رسائل مُرسَلة من شخصيات مشهورة (تقلَّد رفاقه وزملاؤه في الحرب مناصب قيادية مهمة)، وكتابًا قد كتبه بعنوان "تحيا الكومونة الشعبية"، وأربعة مقالات منشورة (يمثلها "نجاح أد ء المصابيح الحمراء، والانتصار الكبير لفكر الزعيم ماو تسي دونغ، في الآداب والفنون") وغيرها من الأشياء الأخرى.

وقبل عامين كانت الحقيبة تحمل كتابين في ثقل الحجر، الأول هو "القاموس الصيني الشهير"، والثاني "موسوعة المشاهير العالمية"، وداخل كل منهما أكثر من عشرين رمزًا تصِفُ الإنجازات الكبيرة للأستاذ موه.

وقد اعتمد النصف الثاني من حياته على حقيبة يده. وأكاد أجزم أن المشاعر التي حملها داخله لهذه الحقيبة والآمال العريضة التي علَّقها عليها قد تجاوزت زوجته وأولاده. كانت حقيبة يده مثل ظِلِّه تتبعه ولا تفارقه لحظة واحدة، كأنها هوية الأستاذ موه.. كانت هذه الحقيبة أشبه بخطاب الاستحقاق وخطاب المجد والشرف وبطاقة التعريف وبطاقة الائتمان. وقد رأى زملاؤه من الأساتذة داخل الجامعة أشياءه الثمينة مرة تلو الأخرى، حتى راحوا ينادونه في حميمية "حقيبة مو"، ونسوا اسمه الحقيقي.

وقد جلبت هذه الحقيبة السوداء التي تبدو عادية في مظهرها الكثير والكثير من الغنائم.

عند تقييم أدائه، جلس في حضرة حقيبته في الجامعة، وفي النهاية حصل على لقب أستاذ.

وقت زيادة الراتب، انتقل هو وحقيبته إلى قسم الحوافز، وكانت النتيجة زيادة راتبه إلى الضعف.

عند تقسيم المنازل حاصَرَ هو وحقيبته مكتب تقسيم العقارات، وكانت النتيجة أنه حصل على بيتٍ بزيادة غرفة واحدة عن الآخرين.

وبعد التقاعد زاد تعلُّق الأستاذ موه بحقيبة يده، فراح يحمل الحقيبة أينما راح؛ عند زيارة الطبيب، وعند شراء الدواء وتناول الطعام حتى وقت الاستحمام.. راح يحمل الكنز الثمين.. صندوق الأحلام الذي سيكون عونه في سنين العمر المتبقية.

وفي أوقات الفراغ كان يحمل حقيبته في مبنى الكلية، ولم يجد حرجًا في أن يُطْلعَ الطُّلاب الشباب على مقتنياته الثمينة حاملة الأمجاد التي بداخل حقيبته. وذات مرة تم منعُه من قبل الحرس أمام سكن الفتيات، فراح يصرخ في وجههم وينهرهم، وكأن الحرس لا يعرفون جبل "تاي"[1] الواقف أمامهم، فألقوا حقيبته التي كانت الحياة بأكملها للأستاذ موه بعيدًا، فتناثرت جواهرها المكنونة على الأرض الممدودة. وقد أفضى به الغضب إلى الرقود في المشفى إثر جلطة في المخ ثلاثة أشهر، وقد أنفقت الكلية على علاجه أكثر من تسعين ألف يوان.

وكانت المرة الأخيرة التي رأيتُ بها الأستاذ موه في اليوم الثالث من خروجه من المشفى، في ذلك اليوم أُصبت بإسهال، وركضتُ إلى الحمام عدة مرات، وحينما كنت جالسًا، انفتح الباب الفرديّ للحمام، فرفعتُ رأسي، وتطلعت في ذُعر، فإذ بالأستاذ موه يقف حاملًا حقيبته أمامي، وسرعان ما أخرج من حقيبتِه رسالة مطوية وأعطاني إياها، وعلى الرغم من أنني كنت أحمل ورق التواليت، فقد شعرتُ بالامتنان نحو فعلته واستعملت الورقة.. وفي هذه اللحظة كأنني قد ارتكبت خطيئة لا تُغتفر! سقط الأستاذ موه في الحمام، وراح يُشير إليَّ، ويسبُّني قائلًا: لا يمكن أن أستعمل هذه الورقة، واسحبها من خلفي!

ثم ذهب وشكاني إلى رئيسي، وقال إنني دمرتُ مُقتنياته الثمينة.. وكانت هذه الرسالة قد جاءته منذ فترة قريبة من أحد طلابه يتمنى له العمر المديد،

---

(١) جبل شهير في الصين. [المترجم].

وزاخرة بكلمات المديح. وقال إنه سيشكوني في المحكمة، ويزجُّ بي إلى السجن.. لكنني لم أكن قد فعلت هذا عن عمدٍ!

وقبل بضعة أيام عرفتُ من أحد الزملاء أن الأستاذ موه طريح الفراش في المشفى، وربما يكون من الصعب أن يمرَّ منها على خير، في صباح ذلك اليوم وقف يمارس التمرينات الرياضية، وترك الحقيبة تحت شجرة، ثم اكتشف أنها قد سُرقت. وعلى الرغم من إبلاغ الشرطة، وأنها قد تعهَّدت ببذل قصارى جهدها في حل القضية وإعادة الحقيبة المسروقة، فإنها لا تضمن عودتها.

ومن أجل الأستاذ موه، فأنا أعلم قيمة الحقيبة، وما تعنيه له، فحياتُه كلها مرهونة بتلك الحقيبة! وأنا على يقين.. يقين تامٍّ أن الشرطة ستبذل قصارى جهدها لإعادة الحقيبة المفقودة، وإلَّا فمن الصعب أن يبقى الأستاذ موه على قيد الحياة من دونها.

رسالة انتحار

أستاذتي وزملائي الأعزاء،

في اللحظة التي تطالعون رسالتي سأكون قد فارقتُ هذا العالم.. وسيزيد الفردوس أستاذًا جامعيًّا.

لقد راودتني فكرة الانتحار وأنا في المرحلة الثانوية، لكني شعرتُ أنني داخل مجتمع يهتمُّ بالتعليم والمؤهلات العليا، شخص لا يحصل على شهادة جامعية، ويُقدِم على الانتحار، أمرٍ مُخزٍ.. مخزٍ جدًّا! فوأدتُ الفكرة المجنونة في نفسي، وعضضتُ على أسناني، والتحقتُ بالجامعة. ووطَّنت النفس بعد حفل التخرج في الجامعة أن أودِّع هذا العالم.. أودعه بكامل إرادتي.

لكن الحقيقة كانت قاسية. وبعد سنوات الجامعة الأربع اكتشفتُ فجأة أن التعليم الجامعي لا نهاية ولا حدود له، كشعر الحمل الوديع، وطالب حاصل على الشهادة الجامعية غير مؤهل للموت، فاضطررت إلى استكمال دراستي، وتخليتُ عن فرصة الوظيفة، ودرستُ عامين آخرين، وتهيَّأت

الظروف، وحصلت على درجة الماجستير، وفي أثناء دراستي راح أبي وأمي يبيعان الخضراوات والحبوب، وباعا دماءهما حتى يوفِّرا نفقات الدراسة، وحينما كنتُ أدرس للحصول على درجة الدكتوراه، باعا مأواهما الوحيد، وهو بيت متهالِك يتكوَّن من ثلاث غرف.

وبعد حصولي على الماجستير لم أُلقِ نفسي من شُرفة البناية، لأنه فجأة حدثت قفزة نوعية في التعليم داخل الصين، وتضاءلت قيمة الحاصلين على الماجستير.. ولم يسعني إلا أن أؤجل الفكرة التي راودتني سنوات طوالًا من جديد، واعتزمتُ الحصول على درجة الدكتوراه حتى ينال المنتحر العزة والكرامة، والآن قد بلغت مُنيتي، وأستطيع الذهاب إلى أبي الذي باع كُليته منذ عامين لتغطية نفقات دراستي، وأستطيع أن أقول بمنتهى الفخر: أنا منتحرٌ واسع المعرفة، وصاحب مؤهلات عليا.

كم هو أمرٌ شاقٌّ! حتى الانتحار يحتاج إلى درجة الدكتوراه! حصلت على الدكتوراه بدرجة امتياز، وبالأمس وضعت قبعة التخرج على رأسي، والآن أمضي بمنتهى الفخر على دربي.

لا تنسوا أن تكتبوا بعد اسمي – على نعشي ومقبرتي– كلمة "الدكتور".

الوداع إلى الأبد.

فلان...

في عام...

اشترِ جارًا

وكما يقول مستثمرو العقارات ينبغي تغيير مفاهيم شراء البيوت العصرية؛ فشراء البيت يعني أنك تشتري بيئة من حولك، وجيرانًا يعيشون بجوارك، وكلما كانت البيئة المحيطة جميلة، وارتقى مستوى الجيران، ارتفع ثمن البيت ومكانة من يسكنه، فمستثمر العقارات يريد تحقيق الأرباح، والمستهلك يرغب في تحسين ظروف مسكنه، ويتفق كلٌّ منهما في أغراضهما.. فالبحث عن جيران جُددٍ يحقق ربحًا للطرفين.

كنتَ مقتنعًا أشد الاقتناع بفكرة ضرورة شراء الجيران عند شراء البيت الجديد، وبذلتُ من الجهد والوقت ما بذلته كي أُقنع زوجتي العنيدة المتمسكة بالمفاهيم البالية، ومن أجل إقناعها بالانتقال إلى بيتٍ جديد بدأت من قصة "والدة منسيوس التي انتقلت ثلاث مرات من بيتها"[1] ، وبتُّ طوال شهر

(١) منسيوس: فيلسوف صيني شهير، وأُطلق عليه الحكيم الثاني بعد الفيلسوف الصيني الأول «كونفوشيوس». [المترجم].

كامل في محاولة إقناعها، وفي النهاية أيقنتُ أن السكن بجوار جيران جدد هو ثروة كبيرة... بالطبع ثروة غير مادية. وليس مثل جيراننا الحاليين.. هؤلاء اللصوص.. هؤلاء أصحاب العيون الثاقبة غير المهذبين، وإذا بقيت معهم، فلن أَقْدِرَ طوال حياتي على أن أرتقي بنفسي، وأصبح من نجوم المجتمع اللامعين الجديرين بالاحترام.

في البداية رُحتُ أبحث عن جيران ذوي شأن، من هم الجيران ذوو الشأن الرفيع؟ بالطبع هم أشخاص مرموقون في المجتمع، كنت أحلم أنا وزوجتي أن يكون جيراننا عن اليسار واليمين مغنيًا مشهورًا، أو كاتبًا، أو عالمًا، وضابط أمن، وغيرهم من هؤلاء الجيران المميَّزين، فحلمت أن تنطق ابنتي أولى كلماتها تحت تأثير صوت الغناء المجاني العذب، وانتوينا أن تتولَّد بينها وبين ابن الكاتب المرموق علاقة صداقة، ومن المؤكد أنها ستحظى بتوجيهات الكاتب المشهور، وربما تنال جائزة في إحدى مسابقات الكتابة الأدبية... ربما.. ومن المؤكد أن الجار العالِم سيكون شخصًا طيب القلب، وواسع الأُفق، نافذ البصيرة، وسيتفتح ذهنَ الصغيرة ويتفتق ذهنها، حينها سأعطي معلم الرياضيات درسًا حينما وبَّخها أمام الطلاب في الفصل، ووصفها بأنها فتاة غبية؛ وذلك بسبب علاقة القرابة بين أمِّها وأبيها.

ورغبتي أن يكون أحد جيراني رئيس الشرطة لم أكشف عنها لأحد، فعندما يكون جاري رئيس الشرطة يمتلك من النفوذ ما يمتلكه، فمن سيجرؤ وقتها أن يقترب منا؟ حتى أنني لم أعد في حاجةٍ إلى رجل أمنٍ يحرس بيتي، وإذا جاء

أحد وأهداني شيئًا، ثم انتبه أنه قد أخطأ العنوان، حينئذ يمكنني الحصول عليها دون أن نخشى شيئًا!

ركضتُ أبحث عن عناوين المشاهير، من المغنين والكُتَّاب والعلماء ورؤساء الشرطة، ولم يدلني أحد. فقد وصفني البعض بأنني أعاني مرضًا عقليًّا، وينبغي البحث عن جارٍ يكون طبيبًا، وما إن سمعتُ حديثه، شعرت أنه يحمل شيئًا من المنطق، ثم اكتشفت أنه يسبُّني، فأكون مصابًا بمرضٍ عقلي إذا كنت أفعل شيئًا صبيانيًّا، لكن الآن صار لديَّ من العقل الراجح قد تجاوز حدود الأشخاص العاديين، ومن لا يقتنع فليأتِ ويقارن بين نقودي ونقوده!

في النهاية عثرت على مكانٍ يُطلق عليه "بناية المشاهير"، وعلى الرغم من أن البيوت من حولي كانت شاغرة، فقد كنتُ على يقين أنه ما سيلبث أن ينتقل إليها المغني والكاتب والعالم ورئيس الشرطة.

ولم ينقضِ شهر وجاء شخص يسكن البيت المجاور، وما إن وقعت عيناي عليه عرفت أنه أحد نجوم المجتمع، لكني لم أستطع تحديد هُويته، هل هو من الوسط الأدبي أم العلمي؟ فقط كان ينقصني الحديثُ معه أو معها حتى أستطيع تحديد الفرق.

وصَدَقَتْ توقُّعاتي، كان هذا الجار مغنيًا، يتناهى صوت غنائه من الصباح حتى المساء، حتى أن النجف المعلق في غرفة المعيشة كان يرقص من قوة صوته.

راودتني رغبةٌ شديدة في التعرف إلى جاري الجديد، لكني لم ألمحه مرة خارج البيت، وخشيت أن يسخر من زيارتي المفاجئة له، وحينما كنت أجلس ذات يوم في بيتي أفكِّر في الأمر، إذ بجرس الباب يرنُّ، ففتحت الباب، وكان جاري صاحب الصوت الشجي أمامي، فسرعان ما استقبلته، وجلسنا في غرفة المعيشة، ولم ينتظر أن أفتح حتى فمي، وسألني: أأنت مخرج؟ لا. هل أنت كاتب؟ لا، من المؤكد أنك مغنٍّ أو محافظ المدينة! لا، لا...

لا داعي للإحراج، وسرعان ما أخرج من جيب سرواله دفترًا صغيرًا مزركش الألوان، مهما تكن وظيفتك فهل تسمح لي بالتوقيع هنا؟ فقد طلب ابني أن أذهب إلى جميع جيراننا من المشاهير، وأطلب منهم التوقيع هنا... وسرعان ما طردتُه خارج البيت.

وراحت الأيام تمرُّ، وسُكنت كل البيوت الشاغرة من حولي، ولم يتوقف رنين جرس باب بيتي، وفي كل مرة يطلبون مني التوقيع، ولم أجد سبيلًا إلا تلبية رغباتهم الملحة، ولسوء حظي كم كنت أتمنى أن أكتب على بطاقة بياناتي الشخصية أنا جار فلان أو علان، لكن حتى الآن لم يحدث هذا!

فتاة لا تبرح المنزل

مات السيد دو...

عرفتُ هذا الخبر من الجريدة، وقد عرفتُ الخبر في وقتٍ متأخر، لو كنت عرفته قبل يوم واحد، على الأقل لاستطعت حضور مراسم تشييع الجثمان، وقد جاء بالجريدة أنهم أحرقوا الجثمان، وحضر الجنازة العديد من الزملاء الأكاديميين، وأرسل مسؤول من الدولة إكليلًا من الزهور.

أشعر بالأسف الشديد، وأشعر أيضًا بتأنيب الضمير، السيد دو هو أستاذي، وأنا واحدة من آلاف الطلاب الذين استمعوا إلى محاضراته، مهما تكن الظروف كان ينبغي الذهاب لوداعه الوداع الأخير، وكم تعيسة أنا لأنني لم أعلم بخبر وفاته! وحُرق جثمانه إلا بعد أسبوع من الوفاة، لكن كان ينبغي أن أعلم هذا الخبر المفجع في وقت مبكِّر. أضعتُ فرصة تأتي مرة واحدة في العمر، لكن لم أسمع بخبر وفاته، وقد أصابني هذا بألم كبير، وكل ما عساي أن أفعل الآن هو كتابة مقال لأنعاه وأرثيه على أمل أنً يكون

الآن ينعم بالفردوس، ولا يلومني على تقصيري الكبير في حقِّه. فأنا بمنتهى الصِّدق قد علمتُ خبر وفاته من الجريدة في اليوم التالي من حرق الجثمان! ولقول الصدق هذا ليس خطأي على أية حال من الأحوال.

وطبقًا لحساباتي، كان السيد دو مريضًا لعشر سنوات. ومن فترة إلى أخرى كانت رغبة ملحة تُراودني في زيارته، لكن دائمًا ما كان يرنُّ في أغواري صوت يحذرني بأن من المؤكد أن عددًا كبيرًا من الطلاب يزوره الآن، وسأنتظر طويلًا حتى يحين دوري، وأن أذهب في وقت آخر حتى أتجنَّب الزحام! وكانت هذه الرغبة تجتاحني خاصة وقت الأعياد، وفي بعض المرات كنتُ أرتدي كامل ملابسي، وأهمُّ بالخروج من البيت، وذلك الصوت البارد يشلُّ قدميَّ ويُوقِفُ خُطواتي، من المؤكد هو الشيطان مَن يفعلها! وسرعان ما أعود وأجلس على الأريكة، وأقرص ساقي وفخذي حتى تتعودا الدماء، وتتدفق بهما بشكل طبيعي، حتى لا تغلي الدماء في رأسي.

وبين هذه المرات كانت هناك مرتان على الأقل هاتفتني زميلتي، وأخبرتني أن السيد دو ذكر اسمي ويبدو أنه يلومني لعدم زيارته حتى هذا الوقت، طلبت مني زميلتي إيجاد الفرصة المناسبة للذهاب معها لزيارته، فتردَّدت بعض الشيء وتذرعتُ بأنني منشغلة في الفترة الأخيرة، وسأنتظر، وفي أقرب فرصة وأذهب لزيارته، لكن الوقت يمرق كسحابات الصيف، ومرت الأيام والشهور، في لمح من البصر انقضت عشر سنوات.

أشعر بخجل شديد.. خجل من نفسي. وأنا أنتوي كتابة مقال أُحيي ذكريات السنوات المنقضية، وأحيي ذكراه بكلمات صادقة.. ومؤثرة، وأُعرب له عن بالغ أسفي.. وبالغ حزني.

لكن من أين سأبدأ كتابة المقال؟ أودُّ أن أخبركم بشيء: "أنا جارة للسيد دو، أسكن في البناية ذاتها، والبوابة ذاتها، والطابق ذاته، لكن هو في الشقة رقم ٦ وأنا في الشقة رقم٧...".

من فضللكم لا تلقوا باللوم عليَّ، قد كتبت نصف المقالة ثم توقفتُ، لأن أبي مريض وهو طريح فراش بالمشفى منذ عامين تقريبًا، لقد عرفتُ هذا الخبر من الإنترنت. في عشية عيد المعلم زار أبي أحد المسؤولين رفيعي المستوي كي يشدَّ من أزره، والتقط صورة معه، نُشرت الصورة على مواقع الإنترنت، فأبي أيضًا خبير ولا تقلُّ شهرته عن السيد دو، لكننا لا نسكن معًا، لكنه يسكن في الجهة الأخرى من البناية. وعلى الرغم من بُعد المسافة بيني وبينه، فقد وطَّنتُ العزم على زيارة أولًا، ثم أنتهي من كتابة مقال السيد دو.

العطش

جذبت الحديقة المائية الكبيرة التي بُنيت في منطقة المناظر الطبيعية في المدينة أنظار الكثير من السياح.

يجلس السيد جان تحت المظلة بجوار الشلالات الصناعية في هيئة متعجرفة وثقةٍ كبيرة تملؤه.

وراء كل رجلٍ عظيم قوة خارقة تلعب دورًا! فلتساعدني السماء! راح السيد جان في هذهِ اللحظَة يشكر السماء على عَطْفِها الكبير نحوه، فمنذ مائة عام لم يحدث مثل هذا الجفاف، وصار الطقس لهيبًا يحترق، والشمس اللافحة بخَّرت كل شيء على الأرض، وفي الوقت ذاته التهبت تجارةُ السيد جان.

وراح يستمع إلى صوت المياه المنسابة كالحرير، وهو يحاول أن يواري البسمة التي طفت على وجهه الذي لا تفارقه الجدية، وفي داخله تراوده الرغبة في توسيع خطة هذا المنتزه الترفيهي، فقد صارت التنبُّؤات العلمية عن الاحتباس الحراري والجفاف المستمر هي المعلومات التي يستند إليها في وَضْع خُطة العمل.

رشف رشفةً من زجاجة المياه المعدنية المثلَّجة، ومسح وجهه من قطرات الماء التي سقطت على وجهه من مياه الشلال بالمنشفة التي أعطته إياها النادلة. وعادت النظرة التأمُّلية تكسو ملامح وجهه التي اعتاد موظفوه رؤيتها.

كان يبدو أنه فكَّر في شيء ما، وتحرَّكت زاوية فمِه بعض الشيء، وكان جميع من حوله والصحفيون يحاولون كشف الغموض الذي يُغلِّف حياته، كان الجميع يعرف أنه رجل من صوب الشمال الشرقي، وهذا يبدو جليًّا من لهجته، وأنه بعد التخرج في الجامعة لم يقتنع بالوظيفة، واقتحم عالم التجارة، كان رجلًا جديًّا ومتحفظًا، لم يسمعه أحد يتحدث عن بلدته الأصلية أو يحكي عن عائلته.

قال أحد الصحفيين: إن والده من الموظفين رفيعي المستوى، بينما قال آخر: إنه كان راعيًا للغنم، وفي الصِّغر كان يتسوَّل على الطُّرقات، وقد سمعه البعض ذات يوم وقد لعبت الخمر برأسه يقول: وأنا في الجامعة كنت أتناول حساء الطين الأصفر. وإذا كانت هذه ليست مجرد مُزحة، فهذا يؤكد صِحَّة أنه وُلد في أسرة من رُعاة الغنم.

ومنذ اللحظة التي التحق بها بالجامعة، لم يعد ثانيةً إلى بلدته، وبعد أن ابتسمت الحياة له فَقَدَ الرغبة في العودة إلى بلده القديم، وبعد فترة تواصُل مع والديه، حرَّر لهما خطابًا، لكنهما نهراه ووصفاه بالجحود لقطع علاقته بأقاربه، وابن مثله هو عار على أجداده، فلم يُكررها وراسَلهما، وخبت أيةُ رغبة في العودة إلى بيته القديم. وقد أيقنَ في أعماق نفسه أن هذا هو قدره المحتوم، ولن يقدر على تغييره.

استفاق السيد جان من شُروده، وعاد إلى أرض الواقع، وتحرَّكت زاوية فمه بعض الشيء، نهضَ واقفًا وقفز في المسبح وسبح فترةً، وبعد أن صعد من المسبح جلس ثانيةً تحت المظلة، ثم جاءت النادلة وأعطته الشاي المثلَّج وحُزمة من الجرائد اليومية، وداخل الجرائد وجد رسالةً وكان غلافها مُجعَّدًا وقد طُويت أطرافه، كأنه تنقل من مكان إلى آخر. تحركت زاوية فمه وهو يفض الظرف، وكانت الرسالة من بلدته.

أرسلته لجنة البلدة تخبره أن بلدته قد تعرَّضت إلى جفافٍ استمرَّ عدة سنوات، وقد تشاجر والده مع أحد الفلاحين بسبب دلو من المياه، وكانت النتيجة أنه أُصيب بحجرٍ في رأسه قد أفضى إلى وفاته قبل ستة أشهر. ووالدته لأنها قد بلغت من العمر أرذله لم تستطع تسلُّق الجبل والوقوف في صف يبعد أربعين ميلًا عن مكان غرف المياه، ففارقت الحياة بعد موت والده بفترة قصيرة.

سقطت الرسالة من يديه، وكان وجهه ما زال يرتسم بنظرة التأمُّل، وزاوية فمه لا تكفُّ عن الارتعاش.

الكوكاكولا

ذهب عمدة المدينة في مهمةٍ تفقُّدية، وعَقَدَ ندوةً بحضور عددٍ من الكوادر الشابة. وقد اختير "آمينع" الشاب حديث التخرُّج لحضور الندوة، وجلس في حماسة بجانب طاولة الاجتماعات المستديرة.

ووُضع أمام كل مشاركٍ ميكرفون واسمه وزجاجة كوكاكولا.

وتحدث جميع الحضور في الندوة، واستعرضوا مهاراتهم في الحديث، حتى يتركوا انطباعًا جيدًا في نفوس القادة، لكن بسبب ضيق الوقت، لم يستطع آمينغ الحديث، وحاول أن يُلقي كلمةً، وعند انتهاء الاجتماع شعر بالعطش، وأعلن مُقدِّم الندوة انتهاء الاجتماع، فتناول زجاجة الكوكاكولا من فوق الطاولة ووضعها في حقيبته.

وقد انتبه عمدة المدينة الذي رافَقَ عمدة المقاطعة فعلة الشباب، فقطَّب حاجبيه، وسأل السكرتير عن اسم الشاب، فأجابه السكرتير: إنه حديث التخرج، وتسلَّم عمله منذ وقتٍ قصير في لجنة الشئون المالية الخارجية.

وبعد تحقيق عمدة المدينة في الأمر، عقد اجتماعًا بحضور قادة اللجان والأقسام والهيئات، ونَقَلَ التعليمات المهمة إلى عمدة المقاطعة خلال الزيارة، وقدَّم ملخصًا عن الأعمال المستقبلية، وذكر أمر الموظف حديث التخرج في قسم الشئون المالية الخارجية، وفعلته الشائنة بشأن زجاجة الكوكاكولا. فبسبب جشعه وتهافته على الشراب، لم يعبأ بالصورة العامة أمام الحضور، وأخذ زجاجة الكوكاكولا، فشعر رئيس قسم الشئون المالية الخارجية بحرج شديد، وعاد وبحث عن آمينغ وأخبره بضرورة مراعاة مثل هذه التفاصيلً الصغيرة في العمل، وأنه قد تعرَّض لانتقاد عمدة المدينة بسبب فعلته، رغب آمينغ في شرح موقفه إلى رئيس القسم، فأشار الرئيس بيده قائلًا: "انسَ الأمر! انسَ الأمر! فقط انتبهْ في المرات القادمة!"

وبعد عودة آمينغ أحسَّ بالغضب، فقد أُعطيَ الجميعُ زجاجةَ الكوكاكولا الجميع في أثناء الاجتماع، لو كنتُ شربتُها وقت الاجتماع، لما حدث شيء؟ عند شربها وقت الاجتماع يبدو الأمر طبيعيًّا، لكن لا يبدو طبيعيًّا حينما أحملها معي، بل يوحي بأنني رجل جشع ونهم ولا أفهم في القواعد، ما هذه القواعد؟ وما هذا المنطق؟

اعتاد آمينغ الاعتراف بأي خطأ يقترفه أيام الجامعة، فبات ساهرًا طوال الليل يخطُّ رسالة إلى عمدة المدينة يشرح له منطق فعلته من جوانب عدة، لم يكن عمدة المدينة يعرف آمينغ ولا حتى اسمه، وحينما قرأ رسالته اشتعل

غضبه أكثر وأكثر، فأشار إلى بعض الأشياء في الرسالة، وأضاف بعض الكلمات والجمل، وسرعان ما وصلت الرسالة إلى يد لجنة التجارة الخارجية وإدارة التنظيم، فشعر القادة بالحرج، وانتووا سرعة إحضار آمينغ والحديث معه.

وكلما طالت الأحاديث، زاد ارتباكُه وحيرته، وشعر أن المشكلة خطيرة، وبدأ يكتب التحريات، ويشرح للناس المحيطين به، ويشتري براتبه صناديق من الكوكاكولا، ويدعو إليها الجميع، وتبرَّع مرات بالدم حتى يؤكِّد للجميع أنه ليس رجًلا جشعًا، ولا يُؤْثِرُ مصلحته على مصلحة الآخرين.

لكن ذهب كل ما فعله سُدًى؛ لأن القادة في أثناء انعقاد الاجتماعات بدؤوا يذكرون حادثة الكوكاكولا دون ذكر اسمه كمثال سلبي لتحذير الكوادر الشابة من اتِّباع مثل هذا السلوك، وخدمة المواطنين، وإخلاص النِّية في العمل.

انتوى آمينغ تقديم شكوى، لكن لم يكن هناك دليل على تعرُّضه للأذى؛ فلم ينتقص راتبه، أو يوقفه أحد عن العمل، لكنه دائمًا ما كان يشعر بأن هناك شيئًا خطأ، فعاش في خجلٍ وحزن سنوات عدة.

وعند التعديلات الحكومية طلب نقله، ووافق القادة على طلب النقل.

وبناء على رغبته انتقل آمينغ للعمل في إحدى القرى الفقيرة، ليعمل مساعد عمدة البلدة، وفي يوم وصوله وتسلُّمه المنصب الجديد ابتاع عربة

محمَّلة بصناديق الكوكاكولا، وعند وصوله البلدة وزَّعها جميعها على الرجال والنساء والكبار والصغار.

انقضى شهرٌ، وتعرض آمينغ لانتقاد جديد بأنه قد أسرف في تناول الطعام والشراب عند حضوره حفل كبير، وعلى الرغم من أنه تناول كمية قليلة من الطعام، فإن الأدلة كانت ساطعة على أنه قد أسرف في الشراب.

رجل نصف ميت ونصف حي

أنوار بيضاء قد أعادت إدراكي بالحياة، وجعلتني أستعيدُ حواسِّي النائمة. وصوت عشرات من ضغط زر الكاميرات مصاحبًا للضوء الأبيض راح يخترق أذني شيئًا فشيئًا. وكأن عقلي يرقد بين بقعة من طين، وقد غام عقلي، وصارت الأشياء ضبابية، وإذ بشخص يصيح قائلًا:

– رغم ما بذلناه من جهود مضنية لإنقاذ الضحايا، فقد لَفظَ أنفاسه الأخيرة، والآن أُعلن رسميًّا نيابة عن الفريق الطبي المعالج أنه لم ينجُ أحد من حادث السير. نشكر اهتمام الأصدقاء ووسائل الإعلام!

ودفعة أخرى من صوت التقاط الكاميرا، وحُزمة من الضوء الأبيض. حاولتُ جاهدًا أن أفتح عيني، ورُحتُ أُحدِّق النظر بهم في نظرةٍ مُروَّعة من العالم الآخر، فسمعت صوت صراخ، وراح ضوء لامع يمسح وجهي في حدة، قلصتُ عينيَّ من شدة الضوء، وظهرت صورة الربِّ في عقلي، وكانت صورته مثل حبيبتي الأولى.. وصورة من زوجتي وابني. وعلى الرغم من

أنني لا أومن بالله، فقد انتزع من بين أسناني التي تكسرت كلمة "أنا ما زلتُ حيًّا!"

حاول ضوء الكاميرا أن يسُجِّل أخبارًا عن حياتي مرة أخرى، لكن لم يلقَ سوى جسدٍ مكسور، وعينين مُطبقتين. وقد اختلطت أصوات الصيحات والهتافات وملأت أذنيَّ.

- لم يمت.

- إنه يتكلم!

- شفتاه ترتعشان!

- ما زال على قيد الحياة!

- قد فتح عينيه!

- من فضلكم التزموا الهدوء! أنا المتحدث الرسمي من المشفى، والتقرير الذي يُقِرُّ أنه قد تُوفِّي جاء بعد الكشف والفحص المتكرر للضحية من قبل الطاقم الطبي المتخصص، والإجراءات دقيقة وصارمة، ولا يمكن حدوث أية أخطاء، فلا داعي لترويج الشائعات أو الاستماع إليها.

جاء هذا الصوت الحاد من الميكرفون وقد اخترق طبلتي أذنيَّ.

- أنا ما زلتُ حيًّا!

صحتُ قائلًا كما لو أن شخصًا قد نفث بي من سحر، وتقريبًا اعتدلتُ، وجلستُ على السرير المتحرك.

– أنت الطبيب أم أنا؟ لا داعي للصياح! لقد متَ بالفعل، عليك أن تثق بالطبيب، وتثق بالمشفى، وتثق بالعلم!

انحنى المتحدث الإعلامي وألصق شفتيه بأذني، وقال محذرًا.

ورُحتُ أُحدِّق النظر به، ولم أرغب أن أُطيل النظر إلى ذلك الوجه الذي كان أشبه بموت أسطوري. وتظاهَرَ بأنه يغطي وجهي بالشرشف الأبيض، وانتهز الفرصة وغطى وجهي كاملًا. ولا أعرف ماذا كانت غايته حينما قرصني بغلٍّ كبير في ذراعي، فصحتُ من فرط الألم، وانتقلت من فوق السرير المتحرك حتى وصلتُ إلى الأرض.

أصاب الهلع الجميع، وتراجَعَ أعضاء الفريق الطبي إلى الوراء، واقتحم بعض الصحفيين المحنَّكين، وراحوا يلتقطون بعض الصورة لتسجيل لقطاتٍ حية.

– لم يمت حقًّا!

قال أحد الصحفيين نيابة عني.

– نعم لم يمت! من المؤكَّد أنه لم يمت!

– نعم، هو ما زال حيًّا! قد رأينا جميعًا!

– لا داعي لإحداث صخب! نحن لا يمكن أن نُقرِّر هل هو حيٌّ أم لا؟ هذا ما يقرره المشفى، وعلينا نحن الإعلاميين أن نثق بتقرير المشفى. قالت صحفية شابة تحافظ على أخلاق المهنة، وتتفق مع ما أعلنه المشفى إلى درجة

كبيرة واستجمعتُ ما تبقَّى بي من قوة، وحرَّكت جسدي الهامد، وأطلقتُ كل صيحات الاستغاثة الممكنة. تجمهر حولي عددٌ أكبر، وتعالت الأصوات وامتزجت أكثر وأكثر.

فَرَكَ المتحدث الإعلامي يديه، وقال موضِّحًا للجماهير في نبرةٍ تشي بالقلق:

– لقد أعلنتُ منذ قليل عن وفاة الضحية. وكان هذا وفقًا لما أعلنه الفريق الطبي المعالج، وما قدَّموه من تقرير إلى المسؤولين ذوي القيادات العليا، ثم أقرَّته هذه القيادات، حتى وإن كنتم لا تصدقون التقرير، فأنا أصدق! وبسبب تشكُّك بعض الصحفيين وما أقرَّه المتوفَّى بنفسه، فأنا أقترح الآن ألَّا نحرق الجثمان، بل نضعه داخل مشرحة الجثث بصفة مؤقتة، وننتظر تقرير القيادات العليا، ثم نعلن القرار النهائي، وليطمئن الجميع، سنلتزم بالشفافية والنزاهة، وسيقول العِلم كلمته الأخيرة، ونُقدِّم للجماهير العريضة تفسيرًا مُرْضيًا.

ووسط أصوات النقاش أثنى الجميع على قرار المتحدث باسم المشفى.

توسَّلتُ إلى الرجلين اللذين وضعا الكمامة على فمهما بألَّا يضعاني في الثلاجة، تبادل الرجلان النظرات، وأومأ كلٌّ منهما برأسه في الوقت ذاته، وقال الرجل القصير:

– إذا لم نضعك في الثلاجة، فسيتعفن جسدك!

– لم أمتْ! إذا وضعتماني في الثلاجة، فسأموت من التجمُّد!

قال الرجل مديد القامة في نفاد صبر:

– نحن ننفذ فقط أوامر الرؤساء، هو قال: إنك قد مت، إذن فأنت ميت. لا يمكن أن أخالف قراره، إذا لم نضعك داخل الثلاجة، فسنفقد المكافأة، وربما نفقد عملنا.

جلستُ مرة أخرى قائلًا:

– من فضلكما ساعداني، وما إن أخرج من المشفى سأعطيكما عشرة أضعاف مكافأتكما!

– كيف نثق بكلامك؟

سأل مديد القامة.

– لقد أنقذتما حياتي، فكيف لا أردُّ الجميل؟!

– فلنثق بكلامه.

أومأ قصير القامة برأسه قائلًا:

– سنأخذ كلامك على محمل من الصِّدق!

وضعني الرجلان في منطقة رطبة في إحدى زوايا الثلاجة، ووجدا بعض قطع الورق، ووضعاها بدلًا من جثماني.

بدأتُ أستعيدُ ذاكرتي الغائبة شيئًا فشيئًا، فأدركت أنني كنتُ أحد ضحايا حادث السير الذي وقع على الجسر الذي انهار فجأة، في ذلك اليوم الأسود

استقللتُ دراجتي النارية الجديدة، وكنتُ مصادفةً أمرُّ من فوق الجسر الجديد، ولم تكن أعمال الجسر قد انتهت، وإذا بي أرى نفسي أسقط، وأرى بالونات مُلوَّنة وحمامات عائمة في الهواء.

لم أرغب في أن أستلقي في انتظار الموت، فخشيتُ أن يتأخر القرار النهائي للقيادات العليا بشأن موتي من عدمه، لم يغلق باب الثلاجة، فقد عُلق قُفل حديدي على بابها، فلا شك أن ما من أحدٍ سيأتي ويسرق شيئًا من داخل ثلاجة الموتى، فجمعتُ ما تبقى بي من قوة وقفزتُ من الثلاجة.

أنا ما زلتُ على قيد الحياة، لكني صرتُ نصف ميت ونصف حي.

ولأن اسمي قد أذاعته محطات التليفزيون والإذاعات وشبكات الإنترنت والصحف، وأعلنت جميعها أن الحادث قد وقع بسبب الحمولة الزائدة على الجسر، فلم أجرؤ أن أظهر أمام العامة، فقد سار على الجسر في ذلك اليوم بعض المركبات، ولأن الحمولة الزائدة قد ضغطت على الجسر الجديد، فمن المؤكد أنني سأتعرَّض للمساءلة.

وأصبحت رجلًا نصف ميت ونصف حي، وحتى الآن ما زلتُ أتسكَّع في الشوارع، ولا أقدر حتى على العودة إلى البيت، فثمة خوف قد تملَّكني؛ فلا أعلم إذا كانت زوجتي وابني سيصدقان أن روحي قد فارقت الحياة كما جاء في تقرير المشفى أم أنني حيّ أُرزق!

زِيٌّ مُوحَّد

"تسون زي شياو" شخص عاش منظمًا طوال حياته، ولم يكن من الضروري فحص سيرته الذاتية حتى تتعرف إلى هُويته، فقط كل ما عليك أن تتطلَّع إلى ملابسه حتى تعرف أنه رجل مُنظَّم وينتمي إلى مؤسسة عملٍ جماعية.

وحينما التحق بروضة الأطفال، كان جميع الأطفال يرتدون مريلة صغيرة مطبوعًا عليها اسم الروضة، وعليها باقة زهور حمراء ذات ورقتين في لونٍ أخضر، وهي ترمز إلى الدولة.

وقد ارتدي زيًّا موُحَّدًا منذ التحاقه بالمدرسة الابتدائية حتى المدرسة الإعدادية، يحمل اسم الطالب والمدرسة، وعلى الرغم من قُبح الملابس، فقد كان يجب ارتداؤها كل يوم، فأينما تذهب وحيثما ترُح، فسيتعرف إليك الآخرون في لمح من البصر، وذات مرة أخذ خلسة وهو في المكتبة كتاب "الصخرة الحمراء" ووضعه بين ذراعيه، وقد عرف أمين المكتبة هُويته من

خلال اسم المدرسة المطبوع على الزي المدرسي، ومرة أخرى بعد الانتهاء من المدرسة، مَرَّ على مصنع للغزل والنسيج وهو عائد إلى بيته، فرأى ألسنة الحريق تتصاعد من داخل المصنع، فحمل الماء وراح يطفئ النار، فحرَّر أصحاب المصنع خطاب شُكرٍ إلى المدرسة. وكان الفضلُ إلى الاسم المطبوع على الزِّيِّ المدرسي. وفي صيفٍ ذلك العام، سقط سهوًا في البئر وهو يمضي على الطريق، فأنقذه المارة وحملوه، وضمَّدوا جرح رأسه، وأوصلوه إلى المدرسة وكان أيضًا الزيُّ المدرسي هو مَن أنقذه في هذا اليوم.

وبعد التخرُّج في المدرسة الإعدادية التحق بالجيش، وارتدى الزيَّ العسكري الأخضر، وصار شخصًا أكثر تنظيمًا، في تلك الأيام ناداه الجميع "تسون الصغير" أو "الرفيق تسون الصغير".

خلع تسون الزِّيَّ العسكري، وارتدى زِيَّ الشرطة، وصار تسون الصغير تسون الكبير، وعمل طوال سنوات في الشرطة، وجعل زيُّ الشرطة زملاءه أصدقاءه وجيرانه يغبطونه، بل عرفت الرهبة الطريق إلى قلوبهم.

وقد أُحيلَ مبكرًا إلى المعاش، وتحوَّل من تسون الكبير إلى الكهل تسون. ولم يبق في البيت، بل ارتدى زِيَّ الأمن، ووقف أمام باب الفندق يستقبل الرواد ويفتح لهم الباب أو يقودهم إلى ركن السيارات، وقد قلَّل هذا الزي إحساسه بالفقدان وخسارة الأيام، بل اشتعلت الحماسة التي خبت داخله من جديد.

وما استطاع أن يتخلص من بعض العادات السيئة التي لازمته في أثناء عمله في الشرطة، فقد اعتاد الاعتداء على الآخرين، وقُبض عليه، وقال: إنه ارتدى أيضًا داخل السجن زيًّا موحَّدًا يحمل أرقام المساجين، لكنه لم يكن في جودة زي الشرطة، ولم يكن ملمسه ناعمًا على جسده.

لم يمكث طويلًا داخل السجن، وسرعان ما أُودع في المشفى. وقال: إنه أيضًا يرتدي زيًّا موحَّدًا يحمل أرقام المرضى، وكان المشفى هو مَن أعطى هذه الأرقام، وقُبيل رحيله أُودع في مشفي لرعاية المسنين، فقد كان يعاني سرطان الكبد.

وفي الأيام الأخيرة كان كل ما تتوق إليه نفسُه هو أن يترك هذا العالم، وينتقل إلى عالم آخر يستطيع أن يرتدي به زيًّا موحَّدًا، قال: إنه قد اعتاد التنظيم في حياتِه، وإذا كان قد ارتدى ذات الملابس التي يرتديها الآخرون، لشعر أنه شخصٌ آخر، وفَقَدَ إحساسه بذاته وهُويته.

ستتغيَّر الأحوالُ!

جملة تخلو من التعبيرات والإشارات محددة...

غموض.. حيرة.. ارتباك.

إذا كان الضوء خافتًا والصوت هامسًا، فسيبدو هذا الحديث فاترًا، وستسري قُشعريرة في الأبدان.

لكن لم يكن هذا هو الوضع.

في ذلك اليوم سطعت الشمس في صدر السماء حتى أن أشعتها الساخنة نفذت من شقوق الباب، كأنها سيوف لامعة.

ولم يكن الصوت خافتًا، بل كان هادئًا مثل بركة تغمرها مياه راكدة.

وما زالت القلوب مُتوجِّسة.. وواجفة.

ما قال سواها، وما أوضح شيئًا، بل مسح بعينيه كل الوجوه الواجمة، ثم أسبل جفونه مثل ستائر أُسدل نِصفُها.

جلس في حضرة الصمت الطويل، وعلى الرغم من أنها كانت بضع ثوان، فقد مرَّت علينا كأيام وسنين.

نهضَ واقفًا ومضى.

بينما بقي الآخرون جالسين ورعب قد استبدَّ بهم.

شعروا أن هذه الجملة ثقيلة جثمت على الأنفاس حتى احتبست في صدورهم.

ستتغير الأمور إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ هتك أحدُ الجالسين الصمت المخيف، وغمغم قائلًا بحلق جاف.

ولم يجبه أحد.

انغمس الجميع في سكون، والقلق قد استولى عليهم.

يحمل المستقبل إثارة وتشويقًا وعلامة استفهام كبيرة تتأرجح أمام عيون الجالسين في ترقُّب.

لا شك أن الأمر خطير.. خطير جدًّا.. وحبات من العرق قد تعلقت بجبين أحد الجالسين.

ستتغيَّر الأحوال إلى الأحسن. وبسمة هادئة قد لاحت على وجه أحد الجالسين.

ستتغير الأحوال.. لا أحد يملك إجابة قاطعة، الأمر مخيف.. مخيف جدًّا.

والأعصاب الهشة قد توترت في ظل الأجواء المشحونة، وخرجت التنهيدات والتأوُّهات.

وشعور من التفاؤل سكنَ الأرواح الخائرة، وكانوا على يقين أنه حينما يستيقظون، سيتبدل المشهد الحزين إلى فرح مبين.

هيا بنا نتحمم ونَنَمْ.

اقترح أحدهم وقد هَمَّ بالتحرك.

وهذه النصيحة البسيطة والواضحة لم تلقَ أي اعتراض؛ لذلك استفاق الجالسون واحدًا تلو الآخر من غفوتهم، واستعدوا للاستحمام، ثم يغلقون أعينهم وينعمون بنومةٍ هنية.

وحينما شرع الجميع في تنفيذ نصيحة التحمُّم والنوم، فقدوا التنبُّؤ بأن الأحوال ستتغير!

كلام من القلب.

سأقول لك بمنتهى الصدق، أنا شخص صريح، ولا أعرف اللَّف والدوران، وما ينطوي قلبي عليه ينطق به لساني، لا أقبر الأسرار في قلبي، فأنا لستُ مثل "لاو يو" الذي يعمل في إدارة الموارد البشرية، فهو بالفعل يشبه السمكة، زَلِقٌ مثلها بل أكثر زلاقة من السمكة، أشبه بسمكة نطاط الطين أو دودة الأرض لا تستطيع الإمساك بها بين يديك، أو حتى التقاطها بشوكة، فستنزلق وتفلت من بين يديك، لا أعلم هل تتذكر حينما طلبت مني شيئًا، اللعنة على ذلك! رُحت إليه أرجوه أن يساعدني، لكنه راح يُراوِغ هذا الشخص الزلق ويتهرب مني، وفي النهاية لم يساعدني في شيء، بل بدا كأنه في النهاية قد قدَّم لي معروفًا كبيرًا.

سأقول لك بمنتهى الصدق، أنا شخص متسرع. لكن هناك البعض يصفني بأنني شخص بطيء، والبعض يقول عني من ورائي أنني شخص بارد وسطحي، لكنهم لا يفهمون شخصيتي الحقيقية! لكن فلتقل أنت

الصدق؟ هل أنا شخص بارد؟ هل أنا رجل سطحي؟ لديَّ عيب، إذا أغفلت شيئًا تصفني زوجتي بأنني أعاني مرضًا عقليًّا، وأني لا أكترث إلى شئون البيت والأسرة، كيف أكون هذا المهمل؟ فأنا أعمل رئيسًا في شركتي، فكيف سأفكر في نفسي فقط؟ وكيف لا أكترث لشئون العمل! فأنا دائمًا قَلِقٌ بشئون العمل ككلب مسعور، أمكث طوال اليوم من طلوع الصباح حتى المساء، وأنا أفتح عيني على وسعهما حتى تنغلق الأنوار، وحتى بعد غلق الأنوار يكون عقلي أشبه بفيلم سينمائي، تدور أحداثه في شريطٍ أمام عقلي حدثًا تلو الآخر، ينام الجميع وأنا من يجافيني النوم.

سأقول لك بمنتهى الصدق: أنا شخص صريح.. صريح جدًّا.. ولا أجيد تجميل الكلام، ولا أعرف قول حلو الكلام، وتزيد صراحتي أمام رؤسائي، فعلى سبيل المثال، أنت رئيس عمل رائع، ويحبه الجميع، وسُمعته مثل الذهب وسط الجميع، فماذا سيفيد كلامي؟! إذا زاد الكلام الحلو كلامًا أحلى.. فأنا لم أتعلم منذ الصغر كيف أجامل الآخرين، ولا حتى أرغب في التعلم، وإذا شعرت بأن ثمة شيئًا يشوبه ثمة خطأ، لا أستطيع الصمت، وأشعر بشيء يكتم أنفاسي.

وقد اعتدتُ معاملة زملائي ومرؤوسيَّ في العمل، حتى رؤسائي معاملة واحدة، وأنت تعرف هذا الأمر، في المرة السابقة قلت لك رأيي بصراحة، ولم يعجبك ما قلته، وأنا لم أعبأ بمشاعرك، وكي ألهيك عما فعلتُه، سافرنا معًا لقضاء بعض أيام من الاستجمام، هل تذكر هذا؟ ينبغي أن نهتم بعملنا،

لكن لا يمكن أن يكون على حساب صحتنا وأسرتنا. كلامي صحيح أم لا؟ فالاسترخاء لبعض الوقت لا يكون في صالح المرء فقط، بل يكون أيضًا في مصلحة العمل، مثل هذه الأمور المديرون فقط هم من يفهمونها، لكن الأشخاص العاديين لا يقدرون قيمتها. أنا هذا الشخص ما إن يخطئ أحد، أواجهه بحدة.. وعنف.. وسرعة مثل برق خاطف.. من يلومني على هذا؟ أليس هذا لأنني شخص صريح؟ أنا أهاجم الجميع دون قصد.. هل رأيت نتيجة التقييم هذه المرة؟ ما هذا الهراء؟! من يستطيع أن يتحمل مسؤولية ما يحدث فيما بعد.

ولقول الصدق أنا شخص طيب القلب، إذا رغبت في قول شيء فسأقوله في وجهك، ولا أتحدث عن أحدٍ من خلف ظهره.. فمثلًا لاو دينغ رئيس الشئون الإدارية، سمعتُ في الفترة الأخيرة أن رئيس القسم يرغب في ترقيته، في عيد منتصف الخريف العام الماضي استقلَّ سيارة الشركة، واصطحب أسرته وحماته، وذهبوا إلى الضاحية لقضاء العيد، ومشاهدة حُسن القمر، والأستاذ نيو رئيس قسم المالية عادة يذهب إلى الساونا، وقالوا: إنني أحتسي الخمر طوال الأسبوع! ووجهي أحمر اللون لأن ضغطي غير مستقر... لماذا مؤخرة القرد تبدو في هذا اللون؟ هل لأنه يحتسي الخمر أيضًا؟ كلام أخرق مثير للسخرية!

لقول الصدق، أنا شخص صادق وأؤدي عملي على أكمل وجه، ولا أتوق إلى تكوين العلاقات الشخصية وطرق الأبواب وتقديم الهدايا. ولا أركض خلف الرؤساء، ولا أسعى خلف المناصب والترقيات.

أنا أتحدث إليك ولا يحمل كلامي معنى آخر، ولتحري الصدق هناك بعض الأمور الأخرى، لكني أتحرَّج من البوح بها أمامك، في تلك المرة في أثناء تقييم أداء الموظفين والمؤهلات والمستويات وإنجازات العمل والقدرات الخاصة، فهل كنت أقل من أحد؟ لكن كل ما في الأمر أنني لا أهوى زيارة الرؤساء وتقديم الهدايا والانخراط في هذه المجاملات المبتذلة.

وعن الفرص الضائعة... فحدِّث ولا حرج، فكم أضعتُ من فرص ذهبية! لكن لا يهم، فالأشخاص الصادقون دائمًا سوء الحظ حليفهم.. فما من مشكلة أن أخسر المال وأضيِّع الفرص، لكن أحافظ على السلام في قلبي.. أنا لطالما تعلَّمت منك؛ فأنت قُدوتي في الحياة، ولطالما أُحذِّر نفسي.

لا أريد أن أعطِّلك أكثر من هذا، فقط كنت أريد الحديث معك، وأفتح قلبي لك وأبثُّك أفكاري.. وسأغادر الآن، لا تقف! أه، كنت على وشك أن أنسى آداب العام الجديد، لا أعلم ماذا يحب ابنك، فتركت لك بعض النقود لشراء ما يحب هو من ألعاب. إياك أن تخذلني، فأنا لم أفعل شيئًا، وإذا رفضت هديتي فسأشعر بخزي كبير! طوال هذه السنوات كنت لي نِعم المعلم، وقدَّمت لي عونًا كبيرًا قد تجاوز حدود السماوات وحدود البحور، لا أعلم كيف أعبِّر لك عن شكري وامتناني، لا كلمات تفيك حقَّك، لا تخرجْ؛ الجو بارد في الخارج.

كراك!

فجأة توقف جهاز التسجيل.

– اللعنة عليك! الكلام غير واضح! ينبغي أن أُعيد ما قلته مرة أخرى.

ثلاث ضحكات

عُرف عن "دينغ تشو" أنه شخصية جادة ورزينة، وعادة ما ترتسم ملامح وجهه بملامح الوقار، ونظراته محسوبة، وشحيح الضحكة.

ولا تبرح ذاكرته ثلاث ضحكات قد انفلتت منه طوال حياته، قد بدأت بضحكةٍ مجلجلة، وانتهت ببكاءٍ مرير، وقد استقرَّ في ذهنه أن ما من شيء أسوأ من الضحك في الحياة، فيرى أن الحظ السيئ الذي صادفه طوال حياته، كان بسبب تلك الضحكات الثلاث.. تلك الضحكات السوداء.

حينها كان دينغ تشو في السادسة من عمره، وفي هذا اليوم المشؤوم علق حسك السمك في حلق أبيه في أثناء تناول الطعام، فحشر قطعة من الخبز في فمه حتى يقدر أن يبلع الحسك وتنزل جوفه، وفجأة جحظت عيناه، وتورَّم وجهه واعتلته الحمرة، وعلى الرغم من تناوله ثلاث لقيمات من الخبز، فإن حسك السمك ظَلَّ محشورًا في حلقه، وأبى أن يتحرَّك، فمدَّ أصابعه داخل فمه، فأخرج كل ما نزل جوفه من طعام، ولم ير أثرًا للحسك وسط فضلات

الطعام، وفجأة أثار حسك سمكة صغيرة الفوضى في كل مكان حول رجل- في خريف العمر- عفيّ الصحة، أحس دينغ تشو أنه يشاهد عرضًا، فلم يَحِدْ بعينيه عن والده، ولم يستطع أن يتمالك زمام حاله، وانفلتت ضحكة عالية رنَّ صوتها في جنبات المكان، تألم والده بشدة، وسطع غضبه لدرجة أنه مَدَّ يده وصفعه صفعة مُدوِّية على وجهه الصغير، في هذه اللحظة، صُمت أذنه وصفا حلق أبيه، وسرح الحسك العالق إلى معدته.

وانفلتت الضحكة الثانية عندما كان في المدرسة الإعدادية، في يوم رنَّ جرس انتهاء الدرس، وظل دينغ تشو في مكانه يصيح ويهلل، ولأنه كان يعاني عدم كفاءة إحدى أذنيه، فلم يكن يستطيع سماع الأشياء المهمة، فجاءت المعلمة من خلفه وهي تسير على مهل وطرقت على رأسه من الخلف، فتفجرت ضحكات زملائه، فأحسستُ بحرج كبير، وعندما استدارت المعلمة بجسدها حيث تسير إلى منصة الوقوف لشرح الدرس، إذ بأحد الطلاب الملاعين قد ثبَّت قشرة بطيخ على الأرض، فخطت فوقها المعلمة وترنَّح الجسد الوقور، وانزلقت قدماها حتى صارت مؤخرة رأسها عند ركبة إحدى الطالبات، جَمُدَ الطلاب في أماكنهم من الخوف، ولم يكن سوى دينغ تشو الذي راح يضحك دون توقُّف، وكانت النتيجة تورُّم رأس المعلمة وحدوث كسر في ركبة الطالبة، بينما دينغ تشو قد فُصل من المدرسة.

انقضت السنوات، وأنفق دينغ تشو أموالًا كثيرة لعلاج صَمَم أُذنه، ثم التحق بالجيش واشتغل شرطيًّا في المرور، وبعد التسريح من العَمل، جاء تعيينه في إحدى مؤسسات المقاطعة، وطوال عمله أكثر من عشر سنوات،

لم يره شخص واحد يضحك، فأطلقوا عليه اسم "الرئيس دينغ" أي وجهه مثل وجه رئيس العمل. وقد بذل زملاؤه كل ما أوتوا من حيلٍ حتى يجعلوه يضحك، لكن الوجه العابس ما زاد إلا عبوسًا، ذات مرةً، تراهَن أحد الأصدقاء معه على أن (يزغزغه) تحت إبطه حتى ينهار من الضحك، وفي النهاية أجهش دنيغ تشو بالبكاء وخسر صديقه الرهان.

وتفجَّرت الضحكة الثالثة في حفل تأبين قبل عامين، فقد تُوفي مدير مكتبه بسبب الإسراف في شرب الخمر، وتقرر عقد حفل تأبين كبير عرفانًا بإنجازاته في أداء واجبه، وكان المشهد مهيبًا وعظيمًا.. وبعد انتهاء مراسم التأبين، بدأ واحد من الرؤساء رفيعي المستوى في إلقاء كلمة، وقد انطوت الكلمة على إنجازاته الكبيرة ومكارم أخلاقه ومبادئه السامية، حتى أن عددًا كبيرًا من الحضور قد تحرَّكت مشاعرهم إثر هذه الكلمة المؤثِّرة، وراحوا يطلقون التنهيدات الطويلة، بينما عابس الوجه، حاد النظرات جلس وقد أرهف السمع كلمةً كلمةً في خطاب تكريم الغائب.

وفجأة فَطِنَ أنه يُشارِك في حفل تأبين خاطئ، أو أن الرئيس قد أخطأ كلمة التأبين التي يتلوها. وحينما بدأ الرئيس يتلو في صوت خفيض: "نحن اليوم نُودِّع شخصًا نبيلًا.. شخصًا نزيهًا.. شخصًا شريفًا قد ترفَّع عن كل متع الدنيا ومباهجها"، فاعترته بعضُ الدهشة، وسأل زميله الجالس بجواره: كم مات اليوم؟ كيف يقام حفل تأبين لعدة أشخاص في يوم واحد؟ فلم يفهم زميله قصده، وراح يتطلع إليه فاغر الفم.

لم يقدر أن يكبح زمام حاله، وأطلق موجات من الضحك الهستيري. ومن فرط الضحك مال بخصره حتى وصل إلى الأرض وجلس القرفصاء، اندفعت أسرة المتوفَّى نحوه وراحوا يركلونه، لكن لا سبيل لإيقاف سيل الضحكات الهادر. وقد انتقلت عدوى الضحك إلى بقية الحضور، وجلجلت ضحكات الحضور، وملأ صداها حفل تأبين الغائب!

وتغيَّرت أحوال دينغ تشو مع مُضي الأيام.. والآن يمتلك متجرًا صغيرًا يبيع الفاكهة، لكنه ما زال يحتفظ بذلك العابس الخالي من لون الضحكة. وقد نصحه الكثيرون أن يترقق بعض الشيء حتى تروج تجارته. وكان دائمًا يجيب:

- مستحيل! إذا عرف وجهك لون الضحكة فستعرف المصائب طريقك!

النسيان

لم يكن يعاني فِقدان الذاكرة العادي، بل كان هو الشخص الوحيد الذي طواه النسيان.

لا يتذكر أي شيء عن أحواله الشخصية. نَسي اسمه وأين وُلد، حتى زوجته لا يتذكرها، وأقاربه وأصدقاؤه لا يتذكرهَم.

وقد أخبر الشرطة بحركة الرابع في مايو في عام ١٩١٩، وأول صوت مفرقعات جاء بالماركسية إلى الصين في أكتوبر، واجتماع النواب الأول الذي عُقد في أول يوليو من عام ١٩٢١، بحضور اثني عشر ممثلًا، وقد مثلوا خمسين عضوًا من الحزب على مستوى البلاد. وفي العام التالي عُقد الاجتماع الثاني بحضور الاثني عشر ممثلًا، لكن في تلك المرة كان عن مائة وخمسين عضوًا، وكان النواب فلانًا وعلانًا وعلانًا وفلانًا، كما تحدث عن أول تعاون بين الحزب الشيوعي وحزب الكومينتانغ، والحملة الشمالية ومؤتمر السابع من أغسطس والثورة الزراعية والنضال ضد فَكِّ الحصار، والمسيرة الطويلة للجيش الأحمر في حرب المقاومة ضد اليابان، وحرب التحرير، وتأسيس

جمهورية الصين الشعبية، والمساعدات الكورية المعادية للولايات المتحدة الأمريكية، و"محاربة الشرور الثلاثة"[١] و"الشرور الخمسة"[٢] و"حادث قاو راو"[٣] والنضال ضد اليمنيِّين، والقفزة النوعية الكبيرة و"مؤتمر لوشان" والثورة الثقافية، وغيرها من الأحداث الجليلة.

كان على وعي كامل بالحركة الشيوعية الدولية والأوضاع الدولية. استقدمت الشرطةً طبيبا متخصصًا كي يُشخِّص حالته، فاحتار الجميع في أمره، ولم يصلوا إلى أي تفسير مقنع، لكنهم قد اجتمعوا على رأي واحد، أنه يبدو من السمات الخاصة للرجل أنه سياسي محنَّك أو باحث مشهور يعاني فقدان الذاكرة وجنون العظمة.

ومن أجل مساعدته للعثور بأقصى سرعة على عائلته، التقطت الشرطة له صورة ونشرتها على شاشات التلفاز وفي الصحف والمجلات.

وتلعب وسائل الإعلام دورًا عظيمًا في الحياة الآن في شتى الميادين. أسرعت عائلة المفقود إلى مركز الشرطة، وتقابَلَ المسنُّ مع عائلته، وعجز عن التعرُّف إلى أحد منهم، أو عرف صلته بواحدٍ منهم، وراح ينادي أولاده وزوجته "الرفاق" و"رفاق الحرب".

---

(١)حركة سياسية قامت بها الصين في عام ١٩٥١ في المؤسسات الحكومية، وهي محاربة الفساد والإسراف والبيروقراطية. [المترجم].

(٢) حركة سياسية قامت بها الصين في عام ١٩٥١ داخل مؤسسات القطاع الخاص، وهي محاربة الرشوة والتهرب الضريبي وسرقة ممتلكات الدولة والسرقة في العمل سرقة المعلومات الاقتصادية الوطنية. [المترجم].

(٣) حادث يشير إلى مناهضة الحزب الشيوعي الصيني وقع في عام ١٩٥٣. [المترجم].

راح الشرطي والطبيب يسألان عن حياة العجوز. وقد خالَفَت الحقيقة كل توقعاتهما، ولم يكن هذا المحنَّك السياسي أو ذلك الباحث المشهور، بل كل ما هنالك أنه مجرد مهندس.. مهندس عادي. وقبل عشر سنوات بدأ الأشخاص والأشياء تروح من صفحة ذاكرته، وما عاد يعرف مَن هذا ومن ذاك، وما صلته بهؤلاء الأشخاص؟! لكن جميع الأحداث السياسية والاقتصادية والأَحداث الكبرى في شتى المجالات كان يتذكَّرها بوضوح، ويستطيع الحكي عنها بمنتهى الدقة.

وكما أدلى رفيقه في الحرب بشهادته قائلًا: إن العجوز لم يَعِشْ هذه الأحداث والتجارب السياسية بنفسه التي يرويها بالتفصيل، بل كان داخل المصنع مثله مثل سائر أبناء الشعب، واجه مكافحة اليمينية، وعاش أحداث الثورة الثقافية وغيرها من الحركات السياسية، وأنه كان دائمًا متأرجح التصنيف ما بين طبقة الفلاحين المتوسِّطين والأغنياء، فراح يسعى ليكون له دور إيجابي في مختلف الأحداث السياسية حتى يوضح طبقته الاجتماعية الحائرة في الهرم الاجتماعي، أو في محاولة منه لمساعدة التنظيم حتى ينسوا مكانته الاجتماعية المتدنية.

وفي أثناء حركة مناهضة اليمينة والثورة الثقافية اعتاد رئيس العمل في المصنع ترديد مقولة لينين[1]: "نسيان الماضي يعني الخيانة"، وراح يُردِّدها حتى صارت جملته المفضَّلة.

---

(١) ثوري روسي بلشفي، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ومؤسس الحزب اللينيني السياسي رافعًا شعاره: الأرض والخبز والسلام.[المترجم].

وقد تفرَّد هذا القائد بطريقة فريدة في التعليم الثوري، فكان يعتقد أنه للتمييز بين الثوريين وأعداء الثورة اتباع طريقة واحدة وهي اختبار هؤلاء الأشخاص لذاكرتهم، وهل ما زالوا يتذكرون الماضي المنقضي؟ لذلك كان يستدعي الأشخاص الذين تحوم حولهم الشُّبهات، ويطرح عليهم مختلف الأسئلة التي تتعلق بالثورة ومَن يستطيع الإجابة، يحظى بقدرٍ من الثقة المؤقت، بينما الآخرون يتعرضون للاستجوابات والاحتجاز وتوجيه الانتقادات.

امتلأ عقل العجوز بهذه المعارف، واجتاز جميع الاختبارات، حتى وصل به الأمر وهو يجوب واحة الأحلام أن يُردِّد هذه الأحاديث.

ومن أجل البقاء على قيد الحياة، وعيش عيشة هنية، أعملَ عقلَه، وطالَعَ أشياء ما من ثمة صلة بينه وبينها، وما زال حتى يومنا هذا يتذكَّرها.. يتذكرها جليًّا. وما إن يطالعها من جديد تتألق عيناه ببريق غريب، ولا يمكن أن تفرَّ من ذاكرته.

لكن لطالما سألته: ما اسمك؟ وما لقبك؟ وأين تسكن؟ مَن زوجتك؟ وأسئلة من هذا القبيل، فجأة يصبح عقله كصفحة بيضاء.. بل ناصعة البياض.

انتظر لحظة!

- ينبغي أن تستيقظ.

صحت أربع مرات قائلًا.

- انتظر لحظة!

أجاب الصغير أربع مرات.

- أسرع واغسل وجهك.

تقولها الأم على الأقل ثلاث مرات.

- انتظري لحظة. يجيب الصغير في الوقت نفسه ثلاث مرات.

ومنذ التحاقه بالمدرسة الابتدائية وتتكرر هذه الأسئلة والأجوبة مرات ومرات كل صباح، وفي نهاية كل عام دراسي يصلنا إخطار من المدرسة، يسجِّل مواعيد حضور الطالب كل يوم، وتقريبًا لا يوجد يوم واحد خلال العام لم يصل الصغير متأخرًا عن موعد المدرسة.

- ينبغي عمل الواجبات المدرسية!

نُكرِّر هذه الجملة أنا وزوجتي كل مساء مرات، فيغلق الابن التلفاز في عدم اكتراث ويجيبنا: انتظرا لحظة! وبسبب هذا لا نكفُّ عن استقبال المهاتفات التي تخبرنا بضرورة أداء الطالب للواجبات المدرسية.

- ينبغي أن تغسل جواربك كل يوم!

نذكِّره قبل النوم بغسيل جوربه حتى لا ينسى. فيقول في لا مبالاة معهودة: "انتظر لحظة". وتكون نتيجة الانتظار أننا نجد جواربه تحت الفِراش وعلى المكتب، وتكون رائحتها لا تُطاق، ونغسلها نحن نيابةً عنه.

- أسرع وأغلق صنبور المياه!

في كل مرة يغسل فيها الابن أسنانه يقف يتطلع إلى أسنانه اللامعة في المرآة في فرحة، دون أن يأبه بالمياه المتدفقة من الصنبور. "انتظر لحظة" وما زال يتطلع إلى أسنانه الناصعة في المرآة في عدم اكتراث. فخرجنا أنا وزوجتي لنلحق سيارة العمل. وعندما عُدنا في المساء، وجدنا البيت سابحًا في المياه، وكان ما زال واقفًا أمام المرآة يتطلع إلى أسنانه ويستمتع بجمالها في رويَّةٍ.

وذات مرة، ذهبتُ أنا وزوجتي في مهمة عمل في ذات الوقت، وحينما عدنا إلى البيت، قرعنا الباب قائلين: "أسرع وافتح الباب، ليس المفتاح معنا". صحت قائلًا عدة مرات: "انتظر لحظة" كان يجلس على الأرض يلعب

بالحاسوب، وطلب منا مئات المرات الانتظار، وبقينا منتظرين أمام الباب من سواد الليل حتى خيوط الفجر الأولى.

ثم سافر الابن خارج البلاد. وحينما وصل إلى هنا، تحدثنا إليه عبر الهاتف، فقال: "انتظرا لحظة، سأهاتفكما أنا فيما بعد". ومنذ هذا اليوم ونحن نجلس بجوار الهاتف، وانقضت خمس سنوات، وحتى اليوم كبرنا وحدنا، ولم يهاتفنا الابن الذي قال يومها: "انتظرا لحظة".

صحن من الشعيرية

صحن من الشعيرية قد قسَّمَ فريقُ التفتيش من الأساتذة إلى فريقين، فريق أكلَ الشعيرية، وفريق آخر لم يأكل الشعيرية، وصار هذا الصحن من الشعيرية هو المعيار.. هو وسيلة تقييم الأشخاص.

بدأت الحكاية من هنا، زار فريق تفتيش يتكوَّن من اثنين وعشرين أستاذًا جامعيًّا إنجلترا لإجراء التفتيش على أمر ما. وذات يوم نزل فريق الأساتذة في فندق صغير، ووصلهم الخبر بأن الفندق لا يُقدِّم وجبة العشاء. وحينما أخبرهم رئيس الفريق والمرشد السياحي الذي برفقته الخبر، انزعج الأساتذة وصاحوا قائلين (في وجه رئيس الفريق):

– كيف هذا! هل يريدون أن نموت من الجوع!

فقال رئيس الفريق:

– لا داعي للانزعاج، لديَّ اقتراحان، ولنرَ، هل سينال إعجابكم أم لا؟ الأول أن نستأجر سيارة ونذهب إلى المدينة ونتناول العشاء، لأنه لا يوجد

مطاعم بالقرب من الفندق. والثاني هو أن أعطي كل شخص نقودًا، والقرار له في النهاية. فعلى جانبي الفندق مقاهٍ وحانات، ومن لا يرغب في تناول الطعام، فليحتسِ الخمر أو يتناول القهوة، ويتعرف على أجواء المدينة في قلب الليل. أما إذا كانَ هناك أحد يرغب في تناول العشاء، فيمكنه استئجار تاكسي والذهاب إلى المدينة، وكما قال المرشد السياحي: إن على بعد عشرة أميال يوجد مطعم صيني يُقدِّم الشعيرية، وثمن الصحن خمسة دولارات، وبعد تناول الشعيرية يمكنكم التنزُّه والتسوُّق. وإذا وافقتُم على الاقتراح نذهب معًا ونأكل الشعيرية، أو يأخذ كل شخص منكم عشرة دولارات ويفعل ما يشاء؟

ما إن أنهى رئيس الفريق كلامه، قال الجميع كأنهم في صوت واحد:

- أعطنا النقود!

وأعطى رئيس الفريق كل شخص عشرة دولارات.

وبعد أن أخذ الأساتذة النقود، قال البعض إنهم أكلوا الكثير وقت الغذاء، ولا يشعرون بالجوع، ولا يقدرون على وضع لقمة أخرى في بطونهم. وقال البعض: إنهم قد اكتسبوا بعض الوزن بعد مجيئهم إلى إنجلترا، ويفكرون في طريقة إنقاص وزنهم، وسيبدؤون من اليوم، بينما اقترح أحدهم الذهاب إلى أحد المقاهي للجلوس، فقال شاب من بينهم:" الصين مليئة بمثل هذه المقاهي، فلماذا تهتم بالذهاب إلى هذه الأماكن وتتظاهر بالشعور بالإثارة؟" فشعر الشاب بالخجل من الإصرار على موقفه.

وكان وسط الأساتذة أستاذ قد أعلن عن رأيه بكل صراحة: "مَن المجنون الذي يذهب إلى المدينة ليأكل صحن شعيرية بخمسة دولارات ثم يعود بتاكسي؟! وحينما تحسب أجرة التاكسي تكون قد أنفقتَ العشرة دولارات، أي ما يعادل مائة وخمسين يوانًا، هل الشعيرية هنا مصنوعة من الذهب! لن أذهب، لا أحب أن أضيِّع نقودي. من يحب الذهاب فليذهب، أما أنا فلن أنفق نقودي سُدًى، سأعود إلى غرفتي وأنام، فالمثل يقول: "النوم نصف الطعام"، فحينما ننام، لا نشعر بالجوع.

وفي النهاية قطع الشك باليقين أربعةٌ من الأساتذة، كانوا بين التردد والحيرة، وذهبوا إلى المدينة. كانوا ثلاثة رجال وسيدة واحدة، ركبوا معًا التاكسي، وبعد وقت قصير وصلوا إلى المدينة، في البداية قالت الأستاذة: "أنا لست جائعة، أرغب في الذهاب للتسوُّق. تناولوا أنتم الشعيرية، وأنا سأنتظركم عند باب المطعم، ونذهب معًا للتسوق." وكانت هذه الأستاذة تظن أنها امرأة ذكية، فراحت تبحث طول الطريق في المتاجر والأكشاك- كأنها كلب بوليسي- عن جوارب وملابس داخلية ذات أثمان أرخص من الصين، ولم تكف عن استخدام شتى المساومات مع الباعة.

ولم تنتهِ القصة هنا. كان من تناول الشعيرية وسط فريق التفتيش عدد صغير، فقط أربعة أشخاص (في الحقيقة هم اشتروا ثلاثة صحون، وبعد اقتراح واحد منهم، طلبوا صحنًا فارغًا للسيدة، ووضع كل منهم من صحنه في الصحن الفارغ كي تتذوق الشعيرية).

ولأن هؤلاء الأساتذة الأربعة قد اختاروا تناول الشعيرية في المدينة، فتعرَّضوا لسخرية الكثيرين من أعضاء الفريق، ومنذ اللحظة التي ذهبوا فيها إلى المدينة صاروا فصيلًا آخر مستقلًّا عن بقية الفريق.

– هؤلاء الأشخاص سيئون وأنانيون! ما إن يروا الطعام يُهرعوا إليه كالمسعورين!

– شيء شائن جدًّا! مثل الخنازير تمامًا، لا يعرفون شيئًا سوى الأكل!

– أوه! الأستاذ وانغ، أليس أستاذًا في قسمكم؟ ألا يكسب الكثير من النقود؟

– بلى، وزوجته هي نائب رئيس قسم الشئون المالية في الجامعة، فكيف لن يكون راتبه كبيرًا!

– وأيضًا الأستاذ لي سمعت أنه يكسب الكثير من النقود، رغم أن شرحه سيئ، فإنه يكسب الكثير.

– حقًّا! في هذه الحياة الشرفاء هم فقط من يعانون الحظ السيئ، وهؤلاء الأغنياء لا يساوون شيئًا! فمَن يتناول صحنًا من الشعيرية وثمنه خمسة دولارات كيف يكون شخصًا جيدًا؟

– ليس هذا ما أقصده! نحن لا نتحدث عن النقود أو ليس معنا نقود، لكن لا يمكن؛ لأن معنا نقودًا نتباهى بها أمام الآخرين، ويجعلوننا نشعر أننا أقل منهم، وكأننا متسولون على الطرقات، ونحن أيضًا معنا نقود، ولسنا أقل منهم، ما الفرق بينا وبينهم وما يُميِّزهم عنا!

– انتظر حتى يعودوا وترى كل شيء بنفسك. من المؤكد سيندمون أشد الندم. سيقولون إنهم وجدوا المتجر مغلقًا.

– أنا أقول إنهم وجدوا المطعم مليئًا بالحشرات وغير نظيف، والحشرات تسبح على صحن الشعيرية! سترون بأنفسكم قبل العودة، سيكون الإسهال قد أصابهم.

– فلتخفِ ورق التواليت، لنر ماذا سيفعلون!

وقف عشرات الأساتذة الذين لم يذهبوا إلى المدينة على باب الفندق وبطونهم خاوية ينتظرون عودة هؤلاء الملاعين الذين ذهبوا لتناول الشعيرية في الضاحية، بينما كان الآخرون قد اشتروا رقائق البسكويت والشعيرية سريعة التحضير، فكان مزاجهم هادئًا، ولم تشتعل ثورتهم كالآخرين، فقد وفَّروا عشرة دولارات، فأحسوا بالسعادة، لكن في الوقت نفسه قد شعروا بالحزن لأنهم لم يذهبوا وتناولوا الشعيرية في المطعم الصيني.

وعاد الأربعة الملاعين من الضاحية.. هؤلاء الأغنياء، وكانت وجوههم ترتسم بسعادة طاغيةٍ، ويُلوِّحون بأياديهم في فرحة الصغار. وراحوا يثنون على الشعيرية وهو يربتون على بطونهم، وكانت لهجتهم كأنهم تناولوا الشعيرية في قصر الإمبراطور، وليس في مطعم صيني!

غَضِبَ بقية الأساتذة من أصحاب البطون الخاوية، وراحوا يسبُّون هؤلاء المتعجرفين الأربعة، ولحس الحظ أن هؤلاء الأربعة لم يتشاجروا معهم، وإلا سالت ليلتها بحور من الدم!

وانغمس فريق أكلي الشعيرية بقية الأيام في حالة من العزلة، فلم يعد أحد يُقدِّم لهم العون في التقاط الصور أو في حمل الأمتعة، بينما راح فريق عدم آكلي الشعيرية يتعاملون معهم بغطرسة كبيرة.

"قد يبدو تناول صحنٍ من الشعيرية أمرًا بسيطًا، لكن في الحقيقة هو ليس كذلك، ولم تتم معالجةً المشكلة بشكلٍ جدي، وأدَّى إلى زعزعة استقرار الفريق. لذلك علينا أن نتعلم من الأمورً السياسية حتى في معالجة بعض الأشياء التي تبدو صغيرة وتافهة."

قال رئيس الفريق وقد وافقه في الرأي عددٌ كبير من أعضاء الفريق.

ولو لم تمت تلك الخنزيرة العجوز، لذاع صيتي داخل القرية.

قبل عشرين عامًا كنت أنا الفتاة الوحيدة التي التحقت بالجامعة، وفي يوم إعلان نتيجة التحاقي بالجامعة، أطلق الأهالي الألعاب النارية في سماء القرية، وعلى الرغم من أن جدي كان هو من اشتراها من نقود بيع الخنزير ووزعها على الأهالي. وفي لمح البصر، صرتُ أنا أمل الأهالي وفخرهم. وسرعان ما تناقلوا قصة تفوُّقي وذكائي في لَمح آخر من البصر.

عاش أبناء القرية حياةً قاسية، وقد حافظ أبناؤها الذين انتقلوا للعيش في بكين على اقتصادهم وتقشُّفهم، وطوال فترة الدراسة في بكين لم أعُدْ مرة إلى القرية، ووفرت نفقات المواصلات، وخفَّفت عن أهلي عبء النفقات.

وفي الشتاء الذي أعقبَ التخرج، زُرتُ البلدة، وتكلَّفت النفقات من راتبي. وعلى الرغم من غيابي عن البلدة أربع سنوات، فلم يتغير ترحيب الأهالي الحار واستقبلوني بحفاوةٍ كبيرة. وطوال هذه السنين قد أطلقوا اسمي على العديد من الفتيات الصغيرات.

وطوال شهر تدفَّق الأهالي على بيتنا دون انقطاع، امتلأ البيت بالزوار، وملأ قشر بذر البطيخ الأرض محدثًا صوتًا عند سير الأقدام فوقه، جلس المسنون القرفصاء على الكانغ[1] يدخنون الغليون، وجلست أنا – ذات المؤهل العالي– في منتصف الفتيات، ونعمتُ بدفء الكانغ، ومن غيري وأنا صاحبة المؤهل العالي الوحيدة وسط هذه الجموع؟ وشعرت وأنا أجلس في منتصف الكانغ، كأنني أجلس في منتصف رصيف الشارع.

لم أخطأ، واستطعتُ التمييز بوضوح بين مناداة الكبار بين عمي وعمتي وخالي وجدي وخالتي. وراحوا يتلون القصص من أيام الصبا الحلوة، وعلى إثرها تفجرت ضحكات الحضور في جنبات البيت، وتجاوبتُ معهم بعض الشيء، رغم أن كل تفاصيل القصص الطريفة التي سردوها قد طوتها أيام الزمان، وكل التفاصيل المؤثرة الخاصة بمدى ذكائي وأخلاقي قد قرأتها في كتاب "حكاية شويه فنغ"، وقصص سرقة المشمش، وسيد الثعابين، ودخول بيت النَّعام، وغيرها من الأفعال الشيطانية التي كان يفعلها الصغار، كنت أنا الفتاة الوحيدة التي لم تلعب هذه الأدوار الشريرة.

وكان جدي سان أكثر أشخاص عائلتنا خبرة وحكمة ومعرفة، جلس لعدة أيام على الكانغ يتحدث معي في شتى الموضوعات وهو مُطبقٌ عينيه.

– ماذا تعملين؟

---

(١) الكانغ شائع في بيوت الصينين في الشمال والجنوب، وهو عبارة عن أريكة طويلة وعريضة تُشبه إلى حدٍّ كبير الفراش. [المترجم].

سأل الجد سان.

– أدرّس في الجامعة.

– هل أنتِ طبيبة؟

– لا أنا أستاذ مساعد.

– ما معنى أستاذ مساعد؟

فتح عينيه سائلًا.

– الأستاذ المساعد يساعد الأستاذ في عمله.

حاولتُ الإيضاح قدر الإمكان.

– هذا يعني أنك متمكنة جدًّا حتى أن الأساتذة يطلبون منك المساعدة.

قال وقد أومأ برأسه. فأومأ الجميع برؤوسهم.

– هل تدرسين الرياضيات أم اللغات؟ ويبدو أن جميع الجامعات لم يُؤسَّس بها سوى هذين القسمين.

تردَّدت بعض الشيء ثم قلت:

– أدرس اللغات.

وإذا لم أختَرْ قسمًا من بين ما قاله، لكنتُ جلبت المتاعب أكثر لحالي.

– اللغات! أنا لا أجيد اللغات. لكني أجيد الرياضيات، كنت أعمل محاسبًا في شبابي، وأستطيع الجمع والطرح والضرب والقسمة، لكني كبرت ونسيت كل شيء.

ضحك الجد سان دون أن يحس بالخجل.

قضيت ربيع هذا العام، وقد غمرتني سعادة كبيرة، وشعر جميع الأهالي بنشوةٍ كبيرة.

وبعد عامين عُدتُ ثانية إلى البلدة، كان صيفًا وقت العطلة الصيفية. لكن لم يكن العيد في هذا العام كالعيد الفائت؛ فقد غابت أجواء الفرحة عن القرية، وقَلَّ عدد الزوار الذين ترددوا على بيتنا عن العامين السابقين، حتى الجد سان لم يأتِ هذا العام وتبادل معي التساؤلات، فقد مات منذ عام.

كنتُ أرغب في العودة قبل يومين إلى بكين، لكن أمي بكت وطلبت مني أن أقضي معها يومين آخرين، فرضخت أمام دموعها وبقيت. والآن حينما أتذكر، أندم أشد الندم في وقت لا ينفع فيه الندم، لو كنت غادرت القرية كما انتويت، لما تشوَّهت سمعتي هناك إلى هذا الحد!

في ليلة مغادرتي، راحت الأمطار تهطل بغزارة، وفي منتصف الليل، إذ بقرع شديد على الباب أيقظني من نومي، كانت جارتنا السيدة سان البدينة جاءت تركض لاهثةً وتقول: إن الخنزيرة الكبيرة مريضة، وتطلب مني أن أذهب لعلاجها.

فضحكتُ، ورحتُ أشرح لها أنني لستُ طبيبة بيطرية، بل أنا دكتورة في الفلسفة، فكانت ترى أن من التحق بالجامعة يعرف كل شيء. وقالت إنها الآن ليس معها نقود، وإذا عالجت الخنزيرة تتعهد في العام الجديد أنها سترسل أحدًا إلى بكين حيث أعيش، حاملًا قدمي خنزير كبيرتين.

في النهاية لم أخاطر وأذهب لرؤية الخنزيرة وسط المطر. فذهابي لم يجدِ شيئًا. وماتت الخنزيرة، بينما راحت هي تبكي وتنتحب، وتألمت من أجل خنزيرتها، وشرعت تلومني لأنني عجزتُ عن علاجها، وسرعان ما عرف نصف أهالي القرية بالأمر.

حتى والداي أحسَّا بعار كبير، فقد ارتسمت ملامحهما بخيبة الأمل وهما يودعانني في صباح اليوم التالي.

انقطعتُ عن الذهاب إلى القرية لعدة سنوات، فقد شاع الآن في جنبات القرية كلام مضحك عن قصة أنني لا أستطيع علاج الخنازير، وقد تحطمت مكانتي الكبيرة في عيون الأهالي، وهؤلاء الفتيات اللاتي حملن اسمي قد غيَّرنه، واشتد التيار الذي يدعو إلى "لا جدوى من التعليم".

وقد أعدتُ تذكرة القطار التي اشتريتُها حينما جاء العام الجديد، فلم أكن أملك من الشجاعة النظر في عيون الأهالي التي ملأها اليأس والسخرية، ووطنت العزم على تعلُّم الطب البيطري، فكان عليَّ أن أستعيد كرامتي بينهم، حتى يتشكل عندهم مفهوم جديد أن دارسة الفلسفة تستطيع أيضًا علاج الخنازير المريضة!

ما وراء الكلام

الكلام الضمني هو فنٌّ من فنون التعبير، شائع جدًّا في المناسبات الخاصة ومجموعات محددة. فهو يشير من بعيد إلى كلام غير مباح. وكان يقال في الأمثال: "استمع إلى صوت الطبول واستمع إلى صوت الكلام،" فعليك أن تستمع إلى الصوت الذي يرنُّ بين الكلمات، وتفهم ما بين السطور.

كان صديقي "لاو جوي" ماهرًا في فن الكلام الضمني، وعرف أسراره، وبرع في استخدامه، فكان يفهم نيات رؤسائه، لذلك حظيَ بثقتهم وتقديرهم.

الكلام الضمني هو إحدى طرق التعبير الخفية، فهو أكثر خفاء من الغمزات، هو أشبه بتبادل العشاق نظرات الحب، بل هو أشبه بامرأة حسناء تستر وجهه بنقاب وتمسك في يديها "بيبا"[1]، وينكشف وجهها تارة وينحجب تارة أخرى، وفجأة يشرق وفجأة يستتر وراء العتمة، وعلى المستمع والمشاهد أن يرهف السمع لمعرفة ما وراء الكلام.

---

(١) بيبا: آلة وترية صينية تتكون من أربعة أوتار(المترجم).

وبلا شك المبالغة في الإنصات إلى صوت المتحدث قد تؤدي إلى عواقب وخيمة من سوء الفهم، ويسيء المستمع فَهْمَ المتحدث، وإذا لم تُبلِ بلاء حسنًا، تكون قد خسرت خسارة كبيرة.

ذات يوم دعاني "لاو جوي" لنحتسي الخمر معًا، وأعطاني درسًا في فن الكلام الضمني، وأعطاني أكثر الأمثلة التي يفتخر بها، وترك فيَّ انطباعًا قويًّا. كان "لاو جوي" رجل أعمال، وعادة يتعامل مع رؤساء الأقسام في الشركات، وتدرَّب على عينين ثاقبتين يستطيع بهما أن يرى ضمائر الآخرين، ويقرأ ما يدور في عقولهم.

ذات مرةٍ، دعا أحد الرؤساء لتناول الطعام في محاولة لإقناعه لمساعدته في قضاء مصلحةٍ صغيرة، لم يقل المدير وقتها كلامًا صريحًا، وقبيل انصرافه أثنى بطريقة لافتة قائلًا:

- رابطة عنقك جميلة جدًّا!

أدرك "لاو جوي" ما يقصده. وفي صباح اليوم التالي أرسل إلى رئيس القسم رابطة عنقٍ من ماركة فاخرة. فابتسم رئيس القسم ابتسامة سخية، بينما شعر "لاو جوي" برضا كبير.

ولم يمضِ يومان، وبدأ الندم يدقُّ باب قلبه، وراح يسب غباءه، لأن رئيس القسم يرتدي سترات قطنية، فكيف سيضع رابطة عنق على السترة القطنية؟! فأسرع، وابتاع سُترتين قُطنتين من ماركة فاخرة، وأرسلهما إلى مكتب رئيس القسم، فشكره، ولم يذكر شيئًا بشأن مصلحته الصغيرة.

وبعد عودته سَبَّ نفسه ثانيةً، وشعر أنه أحمق كبير. وأحسَّ بقلة مهاراته وفهمه لطبيعة الأمور، فكيف يهديه سُترتين فقط؟ كيف تشتَّت عقله ولم يتصرف بنضج!

وسرعان ما أهداه بزَّة كاملة وحذاء جلديًّا فاخرًا وزوجًا من الجوارب، في ذلك اليوم طلب منه رئيس القسم الجلوس، وصبَّ له كوبًا من الشاي قائلًا وهو يضحك:

– عادة لا أجد فرصة لارتداء مثل هذه البزَّات!

وأخبره أن أمره قيد الدراسة الآن.

عربدت السعادة داخل "لاو جوي"، وحينما غادر المكتب راح يدندن دون أن يشعر بأغنية قد تعلَّمها من ابنه الصغير" شي شوا شي شوا"[1].

وانقضى شهر آخر، ولم تأته رسالةٌ من رئيس القسم، فراح يسبُّ نفسه من جديد، ويتساءل: هل كان حديث رئيس القسم يحمل بين سطوره شيئًا آخر لم يفهمه؟ أوه! وراح يصفع رأسه في عنف، كأنها يُفيقه من سُباته العميق. "لا أجد الفرصة لارتداء مثل هذه الملابس!" هذا ما قاله؟ حقًّا عقلي أشبه بقالب طوب!

وسرعان ما نظَّم لاو جوي رحلة إلى جميع بلاد أوربا إلى رئيس القسم يصطحبه بها ثلاثة من موظفيه، وقضى معه أسبوعين، توسَّعت مداركه،

(١) (كلمات تدل على اللهجة، تعني يا لها من مهارة رائعة!) [المترجم].

وتوطَّدت علاقتهما، وتولدت مشاعر من الألفة بينهما، وعلى متن الطائرة ونحن عائدون من الرحلة ربت على صدره قائلًا أن ألجأ إليه في أي أمر أحتاج في إلى المساعدة، وقال في تأثُّر شديد إنه حصل على مغانم كثيرة من رحلته إلى أوربا، وبعد العودة سينصح ابنه بالسفر إلى ألمانيا للدراسة.

استمع "لاو جوي" إلى حديثه، وفهم معناه، فسرعان ما أعرب أنه سيتحمل نفقات دراسة ابنه في الخارج.

انشغل "لاو جوي" في الفترة الأخيرة، وأحسَّ برضا كبير، أخبرني أنه قد حصل على مشروع كبير، ومشغول في إجراءات إرسال ابن رئيس القسم للدراسة في ألمانيا! وقال ما إن ينتهي من هذه الفترة المزدحمة بالأشغال، فسيبحث عن فرصة أخرى لدعوتي لنحتسي الخمر معًا، ويعطيني حديثًا مفصَّلًا عن بعض النقاط المهمة في فن الحديث الضمني.

ربما!

عاش لاو فان وهو يؤمن بالمثل القائل: "خُذْ حذرك ألف مرة، فربما تقع الكارثة من مرة واحدة"، لم يفارق هذا القول عقله، وبات يُردِّده على لسانه في كل وقت.

هذا القول يحمل شيئًا من الفلسفة، كان الجميع يعرف فلسفته، لكن الإثارة في هذا القول قد اكتشفها صديقه "لاو تسه" حينما سأل "لاو فان":

– أنا أعرف إيفان[1] الجميع يخشونه. لكن ما الألف شيء؟ لم أسمع به من قبل؟ من أي شيء تخاف؟

وبلا شك أن لاو فان كان رجلًا متحفظًا، وإلا لما تعلَّقت بفمه هذه الجملة التي تحمل بين طيَّاتها إشارات التحذير.

(١) إيفان الرهيب، لُقِّب بهذا الاسم لأنه كان يقمع بقسوة وعنف الثورات التي ثارت ضده، وخاض حروبًا دموية ليوسع بلاده. [المترجم].

لا شيء يخلو من السلبيات، لا يمكن الثقة بشيءٍ مائة بالمائة، وربما هذا ما يُعرف بالمصادفة في الفلسفة، لكن لاو فان لم يتطرق من قبل إلى الفلسفة، ولا يفعل شيئًا لا يفهمه، ودائمًا يأخذ في اعتباره "ربما" التي قد تجلب له التعاسة.

والأمثلة كثيرة على هذا، في البداية تخلَّى لاو فان عن الالتحاق بالجامعة بإرادته.. بكامل إرادته، لأنه خاف ألَّا يستطيع اجتياز الامتحان مثل الكثيرين ممن ضاعت عليهم فرصة القبول، فيتقدَّم الكثيرون، لكن لا يجتاز الجميع الامتحان، فلم يرغب في المخاطرة، حتى وإن التحقت بالجامعة فربما لا أستطيع الانتظام في الدراسة، فاختصر الطريق، ولم يتطرق إلى هذه السلسلة من المخاطر.

ومثال آخر، حتى الآن لم يتزوج لاو فان، فكما يظن أن مخاطر الزواج أكثر بكثير، فربما يكتشف أن من تزوجها امرأة مجنونة؟ في البداية يبدو كل شيء جميلًا، لكن ما إن يُغلق عليهما باب واحد، تتغيَّر، وتعددت التجارب في هذا الأمر. فصديقه قد اكتشف في ليلة الزفاف أن زوجته مضطربة نفسيًّا! حتى لو كانت الزوجة في حالة جيدة، فستنجب طفلًا دون ذراع أو قدم، وإذا حدث هذا فستتحول حياته كلها إلى جحيم.

وبالطبع نادرًا ما كان يستقل السيارة أو القطار بسبب القصص المروِّعة التي كان يسمعها عن هذه الحوادث، أما بالنسبة إلى الطائرة فلم يفكر يومًا في أن يركب طائرة.

حتى الطعام والشراب قلما كان يخشى أنه قد يُسبِّب الموت المفاجئ، وكان أصدقاؤه يسخرون منه بشأن هذا، فكان يشرح وجهة نظره قائلًا: إذا لم نأكل أو نشرب، فربما يقودنا هذا إلى الموت من الجوع والعطش! فصحَّح له صديقه قائلًا: "إذا لم نأكل أو نشرب فحتمًا سنموت من الجوع والعطش، وليس ربما!".

وقد حالت "ربما" لاو فان بينه وبين فعل الكثير من الأشياء، أو بتعبير آخر منعته من فعل أي شيء. وفي الحقيقة كان دائمًا منشغلًا، فحينما كان يريد فعل شيء، ويشعر أن هناك احتمالية وقوع كارثة، عادة يقنع الآخرين بشراء وثيقة تأمين، وبسبب المشكلات التي تجلبها "ربما" عرف الخوف قلب الكثير من الناس من أن المصائب قد تنزل على رؤوسهم، فاشتروا وثائق التأمين بفضل تشجيعه، وقد حصل على الكثير من الفوائد عند شرائهم شتى وثائق أنواع التأمين ضد الكوارث.

وبعد وقتٍ قصير، صدمته شاحنةٌ كبيرة وهو يتناول الطعام في مطعم صغير على جانب الطريق، وقد أفضى الحادث إلى كسر ستة ضلوع وتهتُّك ساقيه، وبعض الكسور في أجزاء أخرى من جسمه. وأثبتت التحقيقات أن السائق قد غفلت عيناه في أثناء القيادة، بسبب شعوره بالتعب الشديد.

وشعر بغضب كبير وهو يرقد في المشفى، ونَدِمَ أشدَّ الندم؛ لأنه من أجل توفير يوانين جلس يتناول الطعام في ذلك اليوم على جانب الطريق، لكن من كان يتوقع أن يحدث هذا؟ حقًّا "ربما تقع الكارثة من مرة واحدة!" وحينما استفاق لاو فان لم يكف عن قولها.

والأمر الذي لم يفهمه الكثيرون أنه لم يشترِ وثيقة تأمين لنفسه، وقد واجهته مشكلة كبيرة عند دَفْع تكاليف علاج المشفى، فكان سائق الشاحنة رجلًا دخله محدود، وتعهَّد أنهَ سيعطيه خنزيرًا على سبيل التعويض، وسأله لاو تسه: "قد بعتُ الكثير من وثائق التأمين طوال هذه السنوات، فلماذا لا تؤمِّن على حياتك؟" فأجابه: "أنت لا تفهمني، أليس هناك احتمال ألَّا يحدُثَ مَكروهٌ لي، وأكون وقتها قد أنفقتُ النقود هباء في شراء وثيقة التأمين؟

رسالة من البلدة

قُبيل مغادرتي ألحَّ عليَّ أبي كثيرًا لزيارة بلدتي القديمة بعد الانتهاء من عملي.. تلك المدينة الصغيرة الشمالية الجميلة، وأن أتجوَّل خلالها وأرى الطريق الصغير الذي كان يمضي عليه وهو ذاهبٌ إلى المدرسة، والنهر الصغير الذي كان يقف على شاطئه ويصطاد السمك، والجبل الذي كان يتسلقه، ومشاهد الطفولة الأليفة.

وقال: في الشارع المتجه ناحية الشرق هناك محل صاحبته اسمها مدام سون، تبيع شراب الكمثرى المُحلَّى، كانت رائحته تأسر الروح. إذا كان المتجر ما زال موجودًا، فأحضر لي قطعتين من الكمثرى، مدام سون لديها ابنة جميلة في ذات عمري.

- أبي ينبغي أن أغادر!

قاطعتُ حديثه على الفور، وخشيت أن يطلب مني أن أحضر له معي حسناء سنين العمر الماضية.

قبل واحد وخمسين عامًا، هرب أبي مع جدي من المجاعة التي حلت بالمدينة، لكنهما أخطآ الاتجاه، وسارا حتى وصلا إلى أقصى الحدود الجنوبية الغربية، حيث منطقة نائية. وقد حكى لي جدي أنه لو لم يهربا من المجاعة، لمات أبي من الجوع، وكان سكان المدينة يتلقون حِصتهم كل يوم ما يعادل ١٧ كيلوجرامًا ونصفًا من الطعام، ومات عدد ليس بالقليل من الأهالي، ثم سمعنا بالكارثة الطبيعية التي استمرت ثلاث سنوات، وقد ضربت أنحاء البلاد.

ولحُسن الحظ أنني فررتُ أنا وأبوك من هناك، وكانت الثورة الثقافية قد اندلعت في ذلك الوقت، واعتدى الثوار المتمردون على الناس وتلقوا العقاب، وحتى لو لم نمت وقتها من الجوع، لتحتم ضربنا حتى الموت.

وكي يُبرهن جدي على حِكمته الكبيرة في الماضي المنقضي، راح يحكي لي عن قصص تحبس الأنفاس في الصدور، ولم يكن أبي مثل جدي يهوى الأحاديث الطويلة، كل ما احتفظ به على جدار الذاكرة هي مشاهد الطفولة البعيدة. فقد غادرَ المدينة وهو في الثامنة من عمره، وشعر بالمخاطر، والخوف على طريق الهروب فقذف في قلبه الرعب والإثارة. وبعد وفاة جدي تحدَّث أبي معي عن جمال المدينة، وعن تشكُّكه في صحة اختيار جدي السابق. حينما يسمع أية أخبار عن مدينة الطفولة يرهف حواسه.. كل حواسه لكل كلمة تُقال.

قال: من الأفضل العيش في المدينة، فالكفاح في مدينة غربةٍ يجعل المرء يشعر بخواء في القلب ووحدة موحشة. وسمع أن المدينة الآن صارت أفضل

حالًا، وترى البنايات العالية في كل ناحيةٍ من الأنحاء، وتجد كل أصناف الطعام، وكل ما تتمناه هناك، وعلى الرغم من أننا نحيا الآن حياة مترفة، لكني أحيانًا أشعر أنها بلا طعم، وقال أيضًا: كلما أوغل الإنسان في العمر، زاد حنينه إلى مدينته الأولى.

وخاصة في السنوات الفائتة ساءت أحوال صحته يومًا بعد يوم، ودائمًا ما كان يرقد في الفراش بسبب السعال والربو، تسمعه يسب ويشتم هؤلاء ممن يتاجرون في المخدرات وفي الأطفال والنساء، ذات يوم رأيته يلقي زجاجة مياه على شاشة التلفاز قائلًا: "أين هذا المكان اللعين؟ أشخاص يسرقون في عز النهار؟ لم يكن أحد يجرؤ على فعلها، في مدينتي تُترك الأشياء على الطُّرقات ولا أحد يلمسها." كم كره جسده الهزيل! لأنه كان يتمني أن يذهب إلى المدينة للعيش بها، أو على الأقل يرى مدينة الطفولة التي أمضى بها أيام طفولته.

انتهيتُ من عملي، وكان لديَّ يوم آخر نِلت به قسطًا من الراحة، ثم اشتريتُ تذكرة الطائرة، وكنتُ انتويتُ الذهاب نيابةً عن أبي إلى حيث مسقط رأسنا.

واعترتني الدهشة حينما أنهيتُ إجراءات صعود الطائرة في الوقت المحدد، فقد استقللتُ الطائرة عدة مرات في الأيام الماضية، ودائمًا ما كانت تقلع متأخرة. ولم أكن على يقين أنها ستقلع في الوقت المحدَّد، وانتظرت حتى أُغلق باب الطائرة، وتأخرت الطائرة في الإقلاع، وذكر رئيس طاقم الطائرة السبب، وكان سوء الأحوال الجوية وزيادة الكثافة الجوية وثمة أسباب أخرى، على أية حال لم تقلع الطائرة.

وبعد مرور ساعتين بدأت الطائرة تتحرَّك، فهدأت القلوب الفَزِعة، واعتدل المزاج السيِّئ للركاب، وما لبثت لحظات حتى توقَّفت الطائرة مرة أخرى، فتعالى صياح الركاب، وسرعان ما تقدَّمت الطائرة إلى الأمام بضع خطوات ثم توقَّفت، وتصايَحَ الرُّكاب من جديد، وتحرَّكت الطائرة بضعة أمتار... وتوقَّفت وانقضت ساعتان أخريان.

جلست حيث المقاعد الخلفية بجانب الشرفة، ورحتُ أقلِّب في مطبوعات الطائرة بلا هدف، وجريدة المساء اليومية ساعدتني على قتل الوقت، كانت الجريدة تتألَّف من ثلاثٍ وعشرين صفحة مطبوعة في نسخة سميكة، وبخلاف الأخبار السياسية والمحلية، كانت البقية مجموعة من الأخبار المحلية والإعلانات، فشرعتُ أقرأ بعض الأحداث التي وقعت أمس (وعدد من الأخبار حدثت قبل بضعة أيام) في مدينة أبي:

– نشب أمس حريق هائل في مصنع الكيماويات في منطقة "بينغهاي" ذات المناظر الطبيعية الساحرة، وحتى إعلان خبر الحريق، ما زال رجال الإطفاء يحاولون السيطرة على الحريق، ويُولي كبار القادة اهتمامًا كبيرًا بالحادث... المرة الأولى...

– في صباح اليوم انفجر خطٌّ أنابيب الغاز في المنطقة السكنية "تشاويانغ"، وقد أسفر الانفجار عن موت ثلاثة أشخاص، وإصابة ثمانية وسبعين شخصًا، وأربعة وثلاثون قد أصيبوا بإصابات خطيرة، ويُولي القادة اهتمامًا كبيرًا بالحادث وهذه هي المرة الأولى...

– تعرَّض مصرف في شارع السعادة في منتصف الليل للسرقة، وتمت مطاردة اللصوص...

– تعرض ٢٠٠ طالب في مدرسة "وانغ جيا" الابتدائية إلى التسمم الجماعي، ونقلوا إلى المشفى لإسعافهم، وأولى القادة اهتمامًا كبيرًا... وهذه هي المرة الأولى...

– تعرَّضت سيدة مُسنة في الساعة الثانية بعد منتصف الظهر إلى السرقة والطعن على يد شابٍّ مُلثَّم وهي تسحب النقود من ماكينة السحب الآلي...

– تم تأجيل خمسين رحلة طيران في أمس لأسباب عدة، وانتظر آلاف الركاب داخل المطار، وبسبب فقدانهم لأعصابهم، اعتدوا على ممتلكات المطار العامة وحطَّموها. وقد أولى القادة اهتمامًا كبيرًا بالحادث.

– اشتباه في تسرُّب خط النفط داخل حضانة للأطفال، وتجمهُر أولياء الأمور أمام باب مبنى الحكومة المدنية لمناقشة الأمر...

– تم احتجاز المشتبه بهم في قضية اغتصاب الفتيات تحت السلاح، وقد اغتصبوا ثلاث عشرة فتاة خلال شهرين...

– مقتل أخ على يد شقيقه بسبب شُرب الخمر، وقتلَ الجاني أيضًا زوجة شقيقه، ثم أشعل النيران في البيت، وتأذَّى الجيران أيضًا...

– موت آلاف الأفدنة من الثروة السمكية، بسبب إلقاء مخلَّفات المصانع في المياه...

– قدَّم مؤخرًا عدد كبير من السياح شكوى جماعية ضد إحدى شركات السياحة لتعرُّضهم للخديعة من قبل الشركة...

– أغلقت البلدية متجرًا تمتلكه سيدة مسنة يبيع مربى الكمثرى لممارستها للنشاط دون ترخيص...

كانت جميع الأخبار مثيرة، أما فيما يتعلق بحادث الخمر، وتناول أدوية فاسدة فيمكن أن تقرأه في كل مكان.

عادت الطائرة إلى مطار الإقلاع، وبعد انتظار مرير استمر أكثر من ست ساعات وَصَلَنا هذا الخبر:

يعتذر قبطان الطائرة بشدة، ويخبر جميع الركاب أنه بسبب انتشار الضباب الكثيف لا يمكن أن تُقلع الطائرة، بل ستُقلع في الغد..

راح الركاب يغمغمون بسيل من الشتائم وهو يهبطون من الطائرة، ويركلون بأقدامهم سِلال القمامة الموضوعة على جانبي المهبط.

وللأسف لم يكن أمامي سوى الإقلاع عن ذهابي إلى المدينة وألغي رحلتي، كنت أتمنى لو أستطيع استرداد ثمن التذكرة من شركة الطيران، لكن الإجراءات كانت ستستغرق وقتًا طويلًا، ولم يكن أمامي إلا أن أُقر أنني رجل تعيس الحظ، لكن الشيء الوحيد المفرح هو أنني سأعود إلى أبي حاملًا "جريدة المساء اليومية" وأعطيه إياه، ومن المؤكد أنه سيشعر بفرحة.. فرحة عارمة.

دقيقة واحدة تُسبِّب الندم

يشعر أبناء "لاو تسون تو" هذه الأيام بحماسةٍ كبيرة! حينما يذكرون وفاة أبيهم، يحسون بزهوٍ ما بعده زهو، فكانت صورة مراسم جنازة أبيهم أغلى بكثير من ورقة يانصيب رابحة، وتحرُّك مشاعرهم أكثر من فرحة الربح، وذلك لأن إكليلًا من الزهور قد أهداه محافظ المدينة قد وُضع في غرفة التأبين!

كان "لاو تسون تو" يظن أن أبناءه سيقيمون له حفل عيد ميلاده الثمانين، لكن لم يتخيَّل أن منجم الفحم سيقيم له جنازة مهيبة تليق به! وحينما تسمع هذا الأمر ربما تشعر أنه شيء لا معنى وراءه ولا قيمة له، لكن قد شعر أبناؤه برضا كبير، ليس فقط لأنهم وفَّروا نفقات حفل عيد الميلاد الثمانين، بل لأنهم أيضًا وفَّروا نفقات الجنازة." مهما يعش من عمر طويل، حتمًا كان سيحدث، عاجلًا أم آجلًا كان سيموت، وقد وفَّر علينا عبء النفقات!" قال أحد أبنائه.

كان "لاو تسون تو" عاملًا محالًا إلى المعاش في منجم الفحم، وقد عاش حياة هادئة حتى بلغ الثمانين، وكان أكثر حظًّا من هؤلاء العمال الذين ماتوا في عِزِّ شبابهم داخل المنجم، لم يقابل طوال حياته شخصية رفيعة المستوى، ولم يفعل شيئًا هائلًا في عمله، أفليس من العبث أن يرسل إليه محافظ المدينة إكليلًا من الورود في أثناء تشييع الجثمان؟!

ودائمًا هناك سبب وراء التغيُّرات المفاجئة في حياتنا، ويأتي الحظ السعيد للمرء جراء الأشياء المباغتة، وحينما تستمع إلى ما قاله أبناؤه وهم يقصُّون في فرحةٍ أن محافظ المدينة هو سبب هذا الحظِّ السعيد لأبيهم، وهذه هي الحكاية كاملةً:

وصل خبرٌ من الحكومة إلى المنجم أن المحافظ سيزور المنجم في عطلة نهاية الأسبوع لتفقُّد الأوضاع، وكان هذا حدثًا كبيرًا، وبعد سماع قادة المنجم بالخبر، بدأ العمل على قدم وساق، وكانت زيارة المحافظ إلى المنجم نادرة الحدوث، وفي الوقت نفسهِ هي تأكيد لأهمية إنجازات فريق العمل الحالي داخل المنجم، وإذا لم يكن هناك أية إنجازات، فلِمَ رغب المحافظ في المجيء اهتم رئيس العمل بزيارة المحافظ، وراح يصدر التعليمات والتوجيهات إلى العمال.

– سيأتي المحافظ لرؤية ماذا؟ ومعرفة ماذا؟ وعن أية شيء سيتحدث؟ كل هذه الأشياء كان ينبغي التخطيط لها بعناية، فأعِدُّوا خُطة العمل وأرسلوها إلى مكتب المحافظة لمراجعتها، وسرعان ما أبدى المحافظ رأيه، وعدَّل الأجزاء المراد تعديلها من حذفٍ وزيادةٍ، وأقرَّ الخط الأساسي لها،

وقد تفقَّد الأمين ونائب الأمين الطريق الذي سيسير عليه المحافظ ثلاث مرات برفقة فريق العمل، وساروا عدة مرات على الأماكن التي سيتوقف عندها المحافظ بدءًا من نزوله من السيارة حتى ركوبه السيارة ثانية. ونظَّمت إدارة النقل قوات الأمن التي ستؤمِّن المنطقة، وعُلقت اللافتات، ونظَّموا فريق الاستقبال والقادة الذين سيصطحبون المحافظ والصحفيين ووسائل الإعلام، والزهور التي ستوضع على طاولة الاجتماع، وماركة المياه المعدنية وأشياء من هذا القبيل، حتى دورة المياه التي سيستخدمها المحافظ تمَّ تجهيزها. ولم ينتوِ المحافظ سماع تقارير رؤساء منجم الفحم فقط، بل قد تهيَّأ لمقابلة عشرين عاملًا سيحضرون الاجتماع، بالإضافة إلى العمال المحالين إلى المعاش، والتقاط صورة جماعية معهم.

وفي نهاية الأسبوع تهيَّأ كل شيء، وبعد وضع أكاليل الزهور والأقمشة الحريرية الملونة طوال ساعتين، أخبروا من في المنجم أن المحافظ قد ألغى الزيارة اليوم؛ بسبب مهمةٍ رسمية أخرى، وسيأتي في يوم آخر.

ومضى أسبوع آخر وتلقى المنجم إخبارية بزيارة المحافظ في الغد. فركضوا في كل درب، وجهزوا كل شيء من جديدٍ، حتى أنهم أقاموا بروفة في المساء، وكانت النتيجة كالأسبوع الماضي، وفي اللحظة الأخيرة غيَّر المحافظ الترتيبات، وتفرَّق فريق الترحيب الذي كان في انتظار مجيء سيادة المحافظ.

وانقضى أسبوعان آخران، وجاء المحافظ في هذه المرة. اشتعلت الأجواء الاحتفالية في قلب المنجم، ربما أكثر من أجواء العيد الصاخبة، وعلى الرغم من تأخُّر المحافظ ساعة ونصفًا عن الموعد المحدد للزيارة، فإن حماسة فريق

الترحيب لم تفتر، وظلت ملتهبةً كأنها الدقيقة الأولى، وأمطروه بعبارات: "مرحبًا بك"، و"أهلًا وسهلًا"، و"مرحبًا سيادة المحافظ"، و"عمرًا مديدًا لسيادة المحافظ".

تفقَّد المحافظ المنجم بصحبة جميع القادة، وصافَحَ جميع العمال الذين كانوا يتناوبون العمل داخل المنجم، واستمع إلى تقارير قصيرة من رئيس العمال، وتحدث مع بعض ممثلي العمال عن الملكية، ومضت ساعة ونصف من الوقت وخمس دقائق أخرى وكان قد انتهى من تفقُّد المنجم بأكمله، وكان آخر شيء في المشهد دقيقتين لالتقاط صورة جماعية مع عمال المنجم المتقاعدين الجالسين في الخارج في انتظار هذه اللحظة المجيدة.

وحدثت المشكلة في الدقائق الخمس الأخيرة.

وقد وقف العمال المتقاعدون في الصف، وقد بلغوا تقريبًا الثمانين من أعمارهم ينتظرون التقاط الصورة، واستطاعوا الوقوف على الدرج الخشبي بمساعدة ذويهم وأصدقائهم، لكن بسبب العمر وهوان الصحة، لم يقووا على الوقوف طويلًا، وبدأ الكهول يهتزون على الدرج، فهُرع فريق العمل يسندونهم، فيسندون هذا المسن فيترنح ذلك، وشاع الهرج والمرج في المكان.

وقد فكَّر مسؤولو المنجم في الأمر، ووضعوا حفاضة داخل سروال كل عامل، وإلا لتأزم الموقف أكثر وأكثر. وبعد وقوف أكثر من ساعة، كان هناك ثلاثة من العمال لم يقدروا على الوقوف أكثر من هذا، فاضطروا إلى الانصراف، بينما قاوم تسون تو حتى النهاية وتحامَلَ على نفسه، وبعد أن ظهر

المحافظ أمامهم بدقيقة واحدة سقطَ مغشيًّا عليه. اندفع فريق العمل وابنه وأخرجوه من الصفِّ، في هذه اللحظة، امتلأ وجه كبار السن بملامح تأنيب الضمير والأسى.

لم يستفق تسون تو مرة أخرى، فبكى ابنه الأكبر قائلًا:

– فقط دقيقة واحدة ستجعل أبي يندم طوال حياته!

وسرعان ما أعلن رئيس المنجم أن المنجم سيتكفَّل بشئون الجنازة، وحضر رئيس المنجم تشييع الجثمان بنفسه، وبعد موافقة القيادة العليا، وافقوا على وضع إكليل من الزهور على قبره الذي قد أرسله محافظ المدينة.

فاضت سعادة أبناء تسون تو، وراحوا يتحدثون عن هذا المشهد الذي يدعو إلى الفخر قائلين:

– قد شهد المحافظ موت والدنا، كم شخص في هذا العالم يمكنه أن يحظى بهذا الفخر؟ من يستطيع أن يستهين بنا الآن؟

وبلا شك لم ينتبه سيادة المحافظ إلى كم من الوقت الذي انتظره هذا المسن، كما أنه لا يعلم أيضًا أن هناك عاملًا محالًا إلى المعاش كان يرغب في لقائه، وقد تُوفي قبل اللقاء المنتظر بدقيقة.. بدقيقة واحدة!

القُرعة

أسند المشفى مهمة عاجلة إلى الطبيب نيو، فعاد إلى القسم، وعَقَدَ اجتماعًا للأطباء لتنظيم الإجراءات.

كان هناك تسعة أطباء في قسم جراحة الأنف والأذن والحنجرة، وقد وصلوا جميعهم إلى مكتب المدير نيو في الموعد. كان الطبيب "نيو" هو المدير التنفيذي، وفي النصف الآخر من العام كان سينهي إجراءات تقاعُده. وقد تقلَّد هذا المنصب بسبب اعتبار أنه كان أكبر الأطباء في العمر، وفيما مضى كان الأطباء ينادونه الرئيس القديم نيو، لكن بعد تقلُّده المنصب صاروا ينادونه الرئيس، وذلك لمزيد من الاحترام والازدراء في آن.

كان الأطباء يعلمون السبب وراء عَقْد الرئيس نيو للاجتماع، إنه يريد إرسال طبيب ليكون في الخط الأمامي للوقاية من مرض السارس الذي انتشر في المشفى، وبالفعل كانت المستشفيات الأخرى قد اتخذت الإجراءات الوقائية.

جلس الأطباء بوجوه ارتسمت بملامح الجدية، وكان الرئيس نيو هو الوحيد بينهم الذي جلس في هدوءٍ، وراح يمزح معهم، بينما الأطباء لم يطيقوا سماع مثل هذه النكات، بينما جلسوا بوجوهٍ كالحة غارقين في صمت قَلِق، عابسين بحواجبهم مطأطئي رؤوسهم.

– فلنتحدث بجدية!

قال الرئيس نيو في صوتٍ أجش حتى يلفت الانتباه إلى الحديث.

حدد المشفى المهمة بإرسال أحد الأطباء من القسم إلى المشفى الجديد المخصَّص لعلاج مصابي مرض السارس. وهذ مهمة نبيلة!

رفع صوته قائلًا.

– لماذا نذهب؟ نحن لسنا متخصصين في الأمراض المعدية.

سأل أحد الأطباء وفي الوقت نفسه كان يعلم الإجابة.

– الأطباء هناك غير كافين، والمصابون بالمرض أعدادهم كبيرة.

أجاب الرئيس نيو موضحًا ثم أردف:

– وحتى الآن لم أحدد مَن سأُرسل!

جلس الجميع وقد لفَّهم صمت.. صمت مريب.

تنهَّد الرئيس نيو ثانية وقال:

– يوجد في القسم تسعة أطباء بين رجال ونساء، والبعض من كوادر الحزب والبعض من الشباب، والبعض تقدَّمت أعمارُهم بعض الشيء. وهذه مهمة خطيرة ونبيلة! ولا يمكن أن أقرِّر مَن يذهب، ومن لا وحتى أتجنَّب أن يتنازع الجميع معي على الذهاب، فكرتُ في اقتراح سأعرضه عليكم، والقرار لكم في النهاية، وإذا لم يلقَ قبولًا، سيكون الأمر متروكًا لي، وأُحدِّد من سيذهب لأداء هذه المهمة العظيمة.

رُفعت الرؤوس المنكسة، وراحت العيون تحملق في الرئيس نيو.

– سأُجري قُرعة، وأكتب ثماني ورقات، وستكون فارغة، وواحدة فقط سأُدوِّن عليها: "اذهب"، ومن ستكون هذه الورقة من نصيبه سيذهب لأداء المهمة المكلَّف بها.. وبهذه الطريقة نتجنَّب الصراع، وأتجنَّب تكليف واحد بعينه. اتفقنا؟ قال الرئيس نيو وهو يجول ببصره في الوجوه وعلى شفتيه بسمة خفيفة.

– لكن هذه الطريقة ليست جدية.

قال أحد الأطباء معترضًا.

– ينبغي أن يبادر كوادر الحزب بالذهاب.

– لماذا ينبغي ذهاب كوادر الحزب؟ هذه مهمة نبيلة ولا يمكن أن يتصارع كوادر الحزب مع الجماهير على نيل هذا الشرف العظيم!

جاء صوت آخر.

– قد أوشك الرئيس نيو على التقاعد، وهو ليس من كوادر الحزب، ونتفهم عدم ذهابه. أليس هناك أربعة أطباء يشغلون منصب نائب الرئيس؟ أظن أنه ينبغي أن يبادروا بالذهاب.

قدَّم طبيب آخر اقتراحًا جديدًا.

– لماذا يجب ذهاب كوادر الحزب إلى الموت بأنفسهم؟ ما هذا الحديث؟ نحن كوادر ليست رفيعة المستوى ونعمل ونكدح في الحياة، وترغب أن نذهب إلى هناك، فهل يُعقل هذا؟ أنا أعترضُ بشدة!

قال أحد الأطباء في نبرة تشي بالغضب.

– أظن أن الشباب لن يكون لديهم أي اعترض! ما رأيكم في إرسال أحد الأطباء الشباب.

قال أحد الأطباء في منتصف العمر.

– لا يمكن أنا أعيش قصة حب، وأعيش أجمل أيام حياتي، فكيف أذهب؟ أليست هذه خسارة كبيرة؟

وقف أحد الأطباء الشباب قائلًا.

انفعل جميع الأطباء وتوترت الأجواء، فقرع الرئيس نيو على الطاولة قائلًا:

– كفى شجارًا! لا جدوى من هذا الحديث، سنتَّبع اقتراحي، وسيلتزم الجميع بالقرعة.

فجأة خيَّم الصمت على الغرفة، ولم يُبدِ أحدٌ اعتراضًا.

كتبت أوراق القرعة بنفسي لضمان النزاهة.. سأسحب أنا آخر شخص. والورقة المتبقية في الصندوق ستكون من نصيبي. سنبدأ الآن وننتهي سريعًا وفي هدوء. مَن سيسحب الورقة الأولى؟

هَزَّ الرئيس نيو الصندوق ووضعه في منتصف الطاولة.

فجأةً توترت الأجواء داخل الغرفة. وبعد فترة اتجه أصغر الأطباء سنًّا بيد مرتعشة نحو الصندوق، والتقط ورقة حمراء، فتحها وقلبه ينتفض في صدره، فقفز هاتفًا:

- لن أذهب!

وتبعه البقية واحدًا بيد ترتعش، وواحدًا بوجه شاحب، والغالبية كان العرق يتفصد من وجوههم، والبعض قد تسارعت أنفاسه، والبعض راح يتمتم، والبعض قد أطبق عينيه، والبعض راح يتلو بعض الكلمات في سرِّه... التقط واحد تلو الآخر الورقة الحمراء، وهتف كل منهم عاليًا هتاف النَجاة، وبعد أن التقطت الثمانية ورقات حمراء، صفقوا وتبادلوا التهاني، وعادت العلاقات الودية وأجواء الفرح فجأة.

- إذًا سأذهب أنا!

ضحك الرئيس نيو قائلًا وهو يلتقط الورقة الحمراء الأخيرة، وفجأة سكن الأطباء وراحوا يتطلعون في خجلٍ إلى الرئيس نيو وقد اعتلت الحمرة الوجوه ذات الملامح الجدية.

– اطمئنوا أيها الزملاء لا داعي للقلق، سأتوخَّى الحذر وإجراءات الوقاية الذاتية، أظن أن السارس ليس مخيفًا إلى هذه الدرجة.

ألقى الرئيس نيو الورقة في سلة المهملات الكائنة بجوار مكتبه، وودَّع الأطباء في هدوء.

انقضى شهر، وعلى الرغم من إصابة الرئيس نيو بعدوى السارس، فقد تلقى العلاج اللازم، وتجاوز مرحلة الخطر.

تلقى الطاقم الطبي في خط الدفاع الأول ثناءً كبيرًا في محاربة السارس، فيما عدا الرئيس نيو؛ لأن هناك شخصًا قد نشر أنه لم يتقدَّم طواعية للمهمة، بل اتبع طريقة سلبية وهي القُرعة.

بينما شعر الأطباء داخل قسم الأذن والحنجرة بغضب كبير من الرئيس نيو، لأنهم اكتشفوا من الورقة الأخيرة التي ألقاها الرئيس نيو في سلة المهملات أنها كانت أيضًا فارغة، ولم يدون عليها كلمة "اذهب".

فتاة المصعد

أقولها لكم بمنتهى الصراحة، زوجتي هي من تتحكم في شئون البيت، لم أشعر يومًا أن هذا الأمر قد يهين كرامة الرجل أو رجولته أمام الآخرين. فأنا لا أدَّعي أمام الآخرين وأتباهى أنني أفعل كل شيء.. والحقيقة، زوجتي هي من تتحكم في كل صغيرة وكبيرة في أمور البيت، ما الشئون الكبيرة! من منا لا يعرف ما الشئون الكبيرة؟! أليست هي التغيُّر الحراري للكرة الأرضية.. والأسلحة النووية.. وانتخابات الرئاسة الأمريكية؟

دائمًا ما أخبر أصدقائي أن زوجتي هي صاحبة اليد العليا في البيت، أما أنا فتنحصر مسؤوليتي في مجرد أشياء أصغر حتى من تلك التوافه.

يقول الأجداد: "تجرُّ المواشي العربات، وتجرُّ الخيول حجر الرحي، وعندما تتدخل المرأة في شئون البيت تخرب الدنيا"، وهذا القول غير صحيح وغير مقبول، لكن في الوقت نفسه به شيء من الصِّحة.

حينما تتحكم المرأة في كل شيء في البيت، فلا تصيب دائمًا، فلنأخذ أسرتي مثالًا على ذلك، حينما اشترينا هذا البيت، قد اقترفت زوجتي خطأ ليس بالهين، وسبَّب لي جرحًا من الصعب أن يلتئم.

دائمًا يستقر في ذهني عند شراء البيت غير مستحبٍّ أن يكون الطابق عاليًا، فأقصى طابق الثالث أو الرابع، لكنها تقول إنني ضيق الأفق؛ فناطحة السحاب تتكوَّن من ثلاثين طابقًا، وأسكن في الطابق الثالث كأنني أسكن في البدروم! ما هذا الحديث؟! كيف يكون الطابق الثالث مثل البدروم! لم أقتنع بحديثها، لكني لم أعبر عن استيائي، وقبرتُ شعوري داخلي.

وفي النهاية أذعنتُ لأمرها، وابتعنا شقة في الطابق الثامن والعشرين، وكان أغلى بفارق عشرين ألف يوان.

واكتشفت أن السكن في الطوابق العليا كان أفضل بكثير، فالمشهد من أعلى يفوق الطوابق السُّفلى جمالًا، والشمس تمرُّ عبر كل الغرف، والمنظر مفتوح على البراح، حتى المطر يمكننا أن نراه قبل أن يراه من يسكن في الطوابق السُّفلى. وكنتُ أركب المصعد في الصعود والهبوط، ووفرتُ كثيرًا من الوقت والجهد، فشعرت براحة كبيرة.

وانقضت بضعة أيام حتى ظهر شيء جعلني أشعر بالضيق وعدم الراحة.

كانت الفتاة المسئولة عن المصعد تبيع الجرائد المسائية داخل المصعد كعمل إضافي بجانب مهنة المصعد. وقد وضعت الجرائد على طاولة صغيرة في المصعد، ويوان واحد فقط هو ثمن الجريدة. وكثير من الركاب كانوا

يشترون الجريدة ثم يلقون إليها اليوان، وفي بعض الأحيان كانت الفتاة تخشى أن الراكب لم ينتبه إلى شراء الجريدة، فتسأل الراكب الذي لم يشترِ في حرص شديد: "ألن تشتري الجريدة؟" وقد ألقت سؤالها عليّ عدة مرات، وفي كل مرة كنت أومئ برأسي مبتسمًا، وأقول لها: لست في حاجةٍ إليها! ومع مُضي الأيام تغيَّرت ملامح وجه الفتاة، وصار مكفهرًا، كأنها غاضبة، وتغيَّرت معاملتها معي وصارت جافة، في بعض المرات كانت ما إن تراني أركض نحو المصعد، سرعان ما تغلق الباب في وجهي، فتضطرني أن أنتظر، فشعرت أن هذه المعاملة السيئة بسبب عدم شراء الجرائد.

وذات يوم في اللحظة التي أوشكت أن تُغلق الباب تسلَّلتُ في سرعةٍ، فصاحت في غضب: "ألم ترَ أن الباب كاد يُغلق، كنت ستتسبَّب في إتلاف الباب!" فصمتُّ فيً حرج بالغ؛ فقد كان بالمصعد غيري من الركاب! "هل ستأخذ جريدة!"

قالت وهي تُحدِّق النظر بوجهي.

"لن أشتري، فأنا مشترك في خدمة الجرائد اليومية!"

اضطررتُ أن ألفِّق كذبة حتى أفرَّ من الموقف.

"أنت بخيل جدًّا!"

قالت وهي تغمغم بصوت خفيض، وكم جرحت كلماتُها كرامتي!

كنت نادرًا ما أطالع الصحف والمجلات، فجميع الأخبار أجدها على صفحات الإنترنت، وأتصفحها كل صباح في مكتبي، كما أن المرأة حينما

تتحكم في شئون البيت، تضع ميزانية شهرية صارمة لكل شيء، فزوجتي تُعطيني ما يتبقَّى من الميزانية، وهو ثلاثون يوانًا فقط، أي ما يُعادل يوانًا كل يوم، وكانت حُجتها أن الرجل إذا جرت النقود في يديه، فستفسد أخلاقه! ومن أجل الحفاظ على أخلاقي وسُمو شرف رجلٍ يترفع عن الأمور الدنيوية، فتتبع معي نظامًا ماليًّا صارمًا.

فإذا اشتريتُ جريدة كل يوم، فربما لا أستطيع حلاقة شعري كل شهر! فكان امتناعي عن شراء الجريدة من فتاة المصعد له من الأسباب الكافية.

لكن فتاة المصعد لم تأبه بحالتي المالية، وحالتي النفسية المتوترة. بل لم تتوانَ عن أسلوب الضغط واللطف، بل تحديق النظر بي، والكلمات الجارحة حتى تدفعني إلى شراء الجريدة، وفي النهاية خارت قواي وانهارت حصوني، ولم أحتمل تلك المعاملة وقلت لها: أعطيني جريدة المساء!

وانقضى عشرون يومًا، وتغيَّرت معاملتها معي، ولم يتبقَّ في جيبي سوى أربعة يوانات، ونما شعري حتى غطى أذنيَّ، وإذا علمت زوجتي أنني أنفقتُ النقود على فتاة المصعد، لجنَّ جُنونها، وستكون النتيجة غير محمودةٍ بالمرة.

فانتويتُ أن أستخدم الدرج في الصعود والهبوط بدلًا من المصعد، وعلى الرغم من أنني أعاني التهاب المفاصل، فقد كان أهون من العذاب النفسي الذي كنت أحسُّه داخل المصعد. صعود ثمانية وعشرين طابقًا وهبوطها بالنسبة إلى رجل مثلي يزن مائة كيلوجرام، وقدماه منتفختان، وركبتاه ممتلئتان بالمياه، كان اختبارًا قاتلًا، لكني تحمَّلت وتحامَلتُ على نفسي، وفي

كل مرة أرى أمامي نظرات الازدراء والسخرية التي ترمقني بها فتاة المصعد، كان جسدي يمتلئ بالقوة.

ظللتُ على هذا الحال القاسي طوال أسبوعين، وشعرت أنني لم أعد أحتمل الاختبار المؤلم، كانت النتائج رائعة، ووفَّرت ثمن حلاقة شعري حتى تظهر أذناي المتواريتان خلف الشعر الغزير مرة أخرى، وقررت ركوب المصعد مرةً أخرى، وأنعم بإحساس السرعة من جديد.

اندفعت فتاة المصعد، وقد لاحت على وجهها ابتسامة عريضة تستقبلني، كأنها التقت قريبًا لها كان غائبًا عنها منذ فترةٍ طويلة:

– هل كنتَ في مهمة عمل؟ كيف فقدتَ كل هذا الوزن؟!

سألتني في اهتمام بالغ، فأومأت برأس إيجابًا. مدَّت يدها تحت كرسي المصعد وأخرجت حُزمة من الجرائد قائلة:

– هذه الجرائد حصيلة الأيام الماضية، قد حجزتُها لك.. خمس عشرة جريدة!

يا للسماء! شعرتُ أن رأسي يدور، كنت أنتوي الذهاب إلى صالون الحلاقة لقص شعري بالخمسة عشر يوانًا!